Sympathy (تعاطف)

حارس السور

Sympathy (تعاطف)

الطبعة الأولى
1441 هـ / 2020 م

اسم الكتـــاب: حارس السور
المـــؤلـــف: أمير تـاج السـر
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 176 صفحة
عدد المـــلازم: 11 ملزمة
مقاس الكتـاب: 14 x 21
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقـــم الإيـــداع: 28515 / 2019
الترقيم الدولي: 9 - 806 - 278 - 977 - 978 :ISBN

التوزيع والنشر:

دار البشير للثقافة والعلوم
القاهرة - جمهورية مصر العربية
هاتف: 01012355714 - 01152806533
E-mail: elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

أمير تاج السر

حارس السور

(تعاطف)
Sympathy

رواية

دار البشير للثقافة والعلوم

يسألون عن النور

أقول يشبه شمعة.

يسألون عن الريح،

أقول تشعلها الحناجر.

تلك العشيَّة كنتُ مغتبطًا،

كسرتُ إشارة المرور لأول مرة،

تماديتُ في كسر إشارات المرور

لأول مرة.

دمي على كتفي

وحبيبتي تنتظر.

مقطع إسباني

الفصل الأول

حارس البوابة

كانت مشكلة (قسم السيد محارب)، الذي اقترب من السادسة والثلاثين من العمر بلا طموح ولا أحلام، والتي لم تفارقه قط منذ أن عرف الدنيا وعرفته، هي تعاطفه الشديد. يتعاطف مع قطة هائمة، مع كلب ضال، مع ضحايا قمع سلطوي، أو حرب أهلية، أو هزة أرضية هنا وهناك، وتعاطف مرة مع منتجي شراب الكوكاكولا حين مُنع في البلاد، ومع التعابير البائسة لرئيس مُشرَّد في الأرض كنسه شعبه في ثورة، وأرسل عشرات الرسائل غير الموثوق في وصولها إلى عدد من الصحف المحلية، يعلن تعاطفه الصريح مع أخبار البؤس التي تعوَّدت تلك الصحف نشرَها، ويكتب في عدد من تلك الرسائل التي خصصها للتعاطف مع ضحايا الفيضان في الشمال، والحرب الأهلية في الجنوب، والمجاعات في الغرب، عنوانه كاملًا، حتى إذا ما احتاج إليه أحد، لبى النداء بلا تردد. وكان أميز تعاطف له، وأبكاه حقيقة، حين شاهد (حيدر با خريف)، بطل كمال الأجسام القوي، الملقب بشمشون الأفارقة، في آخر أيامه بعد أن تجاوز السبعين، يلعب لعبة القوة في حارة قذرة، وينهزم من

قبضة مراهق. شاهده يتدحرج منكس الرأس، وقد سقط من جيب قميصه عدد من المحاقن، التي تستخدم في حقن الأنسولين في الدم. بكى بصدق، واعترض طريق البطل القديم، لمَّ محاقنه من الأرض، وقال من كل قلبه:

– هاك قبضتي يا شمشون الأفارقة، اهزمني أنا.

ولم يكن با خريف للأسف الشديد، بحاجة إلى تعاطف من ذلك النوع على الإطلاق، بقدر حاجته إلى سبعة وسبعين جنيهًا، ينطلق بها إلى أقرب صيدلية، لشراء قناني أنسولين من أجل دمه.

كان قسم السيد، في أوقات فراغه، وحتى أثناء تأدية وظيفته حارسًا للأمن في فندق سواري، يُنقِّب في الوجوه الواثقة التي يصادفها، بحثًا عن ذرة ضعف ينفذ من خلالها، يفتش الحقائب اليدوية، وصناديق الأمتعة، المحشوة خيرًا وشرًا، بلا مزاج أمني، ويسمح للسيدات الأنيقات بأن يبتسمن ويضحكن، ويسخرن من زيه الرسمي الأزرق، الذي يبدو فضفاضًا على جسده الضئيل، وتلك الشامة السوداء الداكنة، التي تغطي قسمًا كبيرًا من خده الأيمن، من دون أن يبتئس، وحين يسأله أحد العابرين بالبوابة عن اسمه، أو يقدم له سيجارة، يحس بأنه يحب ذلك الشخص جدًّا، وربما يسميه عمي لو كان رجلًا، وخالتي لو كانت امرأة، وولدي الصغير لو كان صبيًّا يافعًا. وانطلاقًا من تلك المشكلة المزمنة، كان

لقسم السيد آلاف الأعمام والخالات، والأبناء أيضًا، موزعين في الدنيا كلها، وبالقطع لا يعرف عنهم ولا يعرفون عنه شيئًا.

لم يكن سواري فندقًا بالغ الرقي قطّ، وما كانت في البلاد أصلًا فنادق كثيرة تُصنف راقية، وتحمل نجومًا على أكتافها. إنه بناء أصفر من خمسة طوابق، غرفه عادية، وصالاته عادية، ومقاعد الجلوس في كل ركن فيه صُنعت محليًا في واحدة من ورش النجارة العادية المنتشرة بالبلاد، وحتى معطر الجو الذي كان يرش في بهوه من حين لآخر، لملاحقة رائحة التبغ والعرق، كان عاديًّا، ويجلبه السعاة العاملون في الفندق من أقرب دكان يصادفونه في الطريق. وعلى مدى سنوات عمل فيها محارب في ذلك الموقع المميز، صادف نزلاء قدموا من كل بقعة في الأرض، فيهم مستثمرون حالمون بامتلاك أراضٍ بكر، وإخصابها باللهفة، وسياح يبحثون عن سياحة قاسية في بلد لا يلتفت كثيرًا لذلك القطاع الحيوي، صادف يابانيين يتحركون بأدمغة التكنولوجيا، ويشمون طقس الفوضى بلا ردود فعل محددة، وكوريين أنشؤوا مصانع للحلوى والإطارات، ويتابعونها بين حين وآخر بإرسال خبراء يمكثون طويلًا في بهو الفندق، أعينهم معلقة برسوم بيانية، وإحصائيات، ولا شيء آخر. وجاء في إحدى السنوات وفد من منظمة حقوق الإنسان، سعيًا وراء قضايا سميت ملحَّة، ولم يظهر إلحاحُها في وجوه رجال ونساء، كانوا يعشقون الشمس بشدة،

وينفقون معظم نهاراتهم عالقين بحوض الاستحمام، المحفور بإهمال في الساحة الخلفية للبناء، أو يتريضون في صالة الألعاب الملحقة بالفندق، والتي شاخت أجهزتها بلا صيانة ولا تجديد. وحين اكتشف الصينيون أن ثمة كرة أرضية، وميادين أخرى، غير ميادين ماو تسي تونج، المشجَّرة بالكبت، يمكنهم استكشافها، والتمدد فيها بأجساد الصناعة والبناء، وحفر آبار النفط، كان سواري، مركزًا كبيرًا لتجمعهم. جاؤوه بالبذلات وأربطة العنق، وأحذية الجلد الفاخرة، وبالشورتات والألبسة الداخلية وأحذية البلاستيك أيضًا، وكانت أفواجهم تتناثر في أحياء المدينة، وتعود بوجوه تبدو ظافرة، أو عابسة، يغادر البعض إلى مساكن مستأجرة، ويذهب البعض إلى بلاده، ليعود غيره. في تلك الأيام استطاع قسم السيد أن يفهم شيئًا من أبجديات لغة الصينيين، يفهم ماذا كانت تعني تلك النقوش التي كان يلاحظها على أحزمة الجلد، وأواني الفخار، وقناني العسل، وعلب الحلوى الطحينية الواردة من بلاد كانت جائعة إلى الآخرين، وبدأت تلتهمهم.

كان جاو جيانج، الذي لم يتبعثر في أحياء المدينة، ولم يسافر قط، منذ أن جاء، هو أول صيني رطن أمامه بكثافة وما فهم رطانته قط، استعان بواحد من موظفي الاستقبال، ليكلمه بلغة وسيطة، وكانت بلا شك اللغة الإنجليزية، التي يتشبث بها معظم سكان الكرة

الأرضية، خصوصًا حين يضطرون للرحيل عن بلادهم، أو السفر في مهمات خارجية، يعرفون شيئًا منها، ومهما حطموها، أو غيروا من ثوابتها، يستطيعون أن يتلمسوا بها الطريق، وكان حارس الأمن أمام فندق سواري، للأسف من الأقلية التي لم تعشق تلك اللغة، ولم تسع لتعرف أكثر من عدة كلمات تعرفها أمه، وتعرفها جدته التي لم تقرأ ولم تكتب حتى بلغتها. شاهد موظف الاستقبال يضحك، ثم شاهده يستخدم يديه وعينيه وأنفه، وعرقه الغزير، في شرح طويل للصيني، الذي تغيرت سعادة وجهه فجأة، وانقلبت إلى محنة: ليس في بلادنا بيوت مفتوحة للذة، وعليك أن تتدبر أمورك. هكذا أجاب موظف الاستقبال عن سؤاله، ولا شك بعد أن حطما لغة العالم الأولى معًا. بعد ذلك، ظل الصيني أيامًا طويلة بلا معنويات، يتأنق تارة، ويبدو كمتسول تارة أخرى، يتمشى في بهو الفندق، أو أمامه في الشارع شبه الضاج، جسده مبتل، وحاجباه منكوشان، وعيناه تلاحقان المرأة في شغف، لا فرق بين كريستي ذات الستين عامًا، التي قدمت من قبرص من ضمن وفد دولي لمتابعة اضطرابات غرب البلاد؛ ولا سميتا باكار الغانيَّة التي كانت تعتقد بضراوة أن ثمة جنِّيًا يسكن بداخلها، ووصفوا لها معالجًا صوفيًا في البلاد سيُخرجه منها قطعًا، لكنها اكتشفت حين جاءت أنها أضاعت اسمه وعنوانه، ولا تستطيع الرجوع إلى بلادها والجنّي داخل جسدها؛ ولا رضينا،

خادمة تنظيف الغرف، من قبيلة الفولاني المحلية، وهي الوحيدة التي استطاع جيانج أن يلمسها، وأن يتحمل صراخها في وجهه، وأن يسكتها أخيرًا بورقة من عملة اليوان، اكتشفت حين ذهبت بها لإحدى الصرافات، أنها لا تساوي أكثر من خمسة جنيهات، أي شطيرتي فول في مطعم نواس الشعبي، أو توكتين من البلاستيك لتزيين الشعر، أو في أحسن الأحوال رصيد يومين لهاتف محمول، يبدو في معظم أيامه بلا رصيد.

كانت «تدبر أمورك» التي التقطها الصيني من ركام اللغة المحطمة، تُعشِّشُ في سراويله، ولا تريد أن تخرج، وفي الأيام التي تلت صراخ الخادمة رضينا، استخدمها بضراوة أكثر، ركب بها عربات الركشة الضيقة التي تتيح لجسد آسيوي أن يلامس جسدًا محليًا بلا شبهة ولا حرج، في باصات نقل الركاب المزرية، حيث النساء مجرد عرق وروائح دهن، واستعجال للوصول إلى محطاتهن، بلا رغبة في الاستجابة لرطانة جائع آسيوي، قهقه بتلك الرغبة في سوق الإفرنج المنسق، وبكى بها في أسواق القماش المزدحمة بالراغبات في تسوق أو فرجة. وحين خسر في إحدى المرات حافظة نقوده، ومنديله الأزرق الحريري، وساعته الصينية من ماركة فزيتا، وجزءًا كبيرًا من شعر رأسه، لأن حلاقًا صعلوكًا ربطه إلى أحد أعمدة الإنارة في حي شعبي، وتلاعب به، أيقن أن تدبيره لأموره في

هذه البلاد خدعة كبيرة، ومساهمة ضالة رماها له موظف الاستقبال في الفندق، وهو يضحك سرًا، عاد إلى ملاحقة أقل تكلفة، ملاحقة عينين ضيقتين ونزقتين، لا تفرقان بين عجوز قبرص، ومجنونة غانا، وعاملة تنظيف الغرف من قبيلة الفولاني المحلية.

لا شك أن قسم السيد قد تعاطف بشدة مع الصيني جيانج، ومع كثيرين غيره من الحالمين بغزو أرض سموها بكرًا، ولا يعلمون أنها بكرٌ ملغومة، يشاهدهم يتابعون تغيرات العملة اليومية على شاشة وضعت في وسط البهو، وهم واجمون، يحسهم يتوترون حين يسمعون بنبأ تظاهرة تحتج على الغلاء وشح السلع، تصدى لها الأمن وفتتها، وحافلة ركاب سقطت في النيل، من جسر بلا حواجز واقية، وامرأة حوكمت بالجلد لأنها سعلت في مجتمع كان فيه رجال يهيجهم السعال، وكم من مرة، شاهدهم يهرولون إلى الطريق في ذعر، حين يشتعل جرس الإنذار المعطوب بلا رائحة حريق؛ وأخبره (حسن طراطيش)، وهو من المواطنين الذين هاجروا من البلاد منذ نصف قرن، وعاد في هيئة مستثمر لإنشاء برج في منطقة السوق الكبير، فيه فندق راقٍ، ومطاعم بأسماء عالمية، ومول تجاري، وأراه تصميم البرج بالفعل على ورق ملون، ووعده أن يلحقه بالعمل فيه بعد أن يكتمل، أن مهمته قد فشلت تمامًا، وأن شركاءه الآخرين في الدولة التي قدم منها قرروا نقل المشروع إلى جهة ليس

فيها عصي خيزران، ولا يرتدي فيها طلاب المدارس زيًا عسكريًا.
في ذلك اليوم، تعاطف مع المستثمر المنهزم بدرجة أرهقته، حولته إلى مجرد ظل بلا فراسة، أمام بوابة لا تحتمل غباء الحراس، أو شرود أذهانهم، أقسم عليه أن يتغدى معه في أحد المطاعم، وكانت وجبة من المرق الحامض والفاصولياء المهروسة في مطعم «سري للغاية»، الذي سماه صاحبه بهذا الاسم، تيمنًا ببرنامج تلفزيوني كانت تبثه إحدى القنوات، ولم يبدُ لأحد اسم مطعم مفتوح على مصراعيه بستة أبواب، ويتكدس بداخله المطحونون، بشتى السمات والرطانات.
كاد في قمة تعاطفه يُسمي الصيني: أخي جيانج، كاد يُلبسه ثوبًا وعمامة، ويصحبه في يوم عطلته الأسبوعية إلى بيت (الكونتيسة)، وهو بيت للشبق السري مختبئ في أحد الأحياء، كانت تديره واحدة تسمت بذلك الاسم، ولا يعرف أحد اسمها الحقيقي، وكان محارب يتردد إليه أحيانًا، يتنزه بشكل آلي في أجساد مشوهة، ونزقة، ويخرج بلا أحلام، إنها واحدة من وسائل تدبير الأمور، الشيفرة التي تعب الصيني في محاولة فكها ولم يفلح قط. وفي اليوم الذي عُثر فيه عليه بلا رأس في مزرعة مهجورة في الضواحي، وتعرفوا إليه من رائحة إبطيه، تعب قسم السيد كثيرًا، استدعى توتراته كلها وتوتر بها، وكان من الذين شهدوا حرقه وذره رمادًا في النيل، فصار يأتيه كثيرًا في أحلامه المضطربة. ولما كان المستثمر المنهزم حسن طراطيش

يبدو وقورًا، بلحية بيضاء، وتجاعيد جَدٍّ، وساعة جيب كلاسيكية، وكيس أدوية ممتلئ يحمله في حقيبته، ويتناول منه حبة أو حبتين من حين لآخر، سماه بالفعل: العم طراطيش، وحزن بشدة حين حمل برجه المفترض، مجرد صورة ملونة على الورق وذهب. كان في وداعه حتى المطار، بعد أن ترك موقعه بلا حراسة، حمل عنه حقيبته شبه الخاوية، وتولى تجميع أدويته حين تناثرت على الأرض، واستحلفه أن يراسله حين يعثر على بلد لا يرتدي فيه طالب زيًا عسكريًا. كان مستعدًا في لحظة الوداع تلك أن يلتحق بخدمة البرج مجانًا ولو بُنيَ في فنزويلا، أو المكسيك.

الفصل الثاني

إغاثة امرأة ضائعة

- ١ -

إنها فرصة تعاطف مذهلة بلا شك، تلك التي استغلها قسم السيد بجدارة، وبلا وعي، ولا إحساس بالخطر. سمَّاها مهمة إغاثة امرأة ضائعة، وغرق فيها حتى النهاية. فقد نفدت، بعد قُرابة شهرين من إقامتها في فندق سواري، بلا معنى، مصاريف سميتا باكار الغانيَّة، صاحبة الجنّي، التي زرعت نفسها في البلاد، ولا تستطيع اقتلاعها. كان بقاؤها في سواري، مرهونًا بتسديد أجرة السكنى كاملة، وثمن الأكل والشرب الذي كان مضاعفًا، بسبب الجنّي الذي عليها إطعامه أيضًا. طبق سلطة خضراء لها وطبق للجنيّ، حساء لها وآخر للجني، سمك لها وسمك للجني، وأحيانًا تختار وجبات يحبها الجنّي ولا تحبها، وتأكلها إرضاء له. كان جزءًا من مهمات قسم السيد أن يبدو حارس أمن حقيقيًا، عابسًا وفظًا، ومستهترًا أحيانًا، يحمل حقيبة سميتا يلقيها خارجًا، يشد النزيلة من يدها، أو يدفعها من ظهرها إلى الطريق. نادوه لتلك المهمة، وقام بها كاملة كما ينبغي، لكنه همس في أذن المطرودة قبل أن تتكون دموعها

أن تنتظره في الطريق حتى تنتهي نوبة عمله، وسيعثر لها على حل. كان في قمة تعاطفه في تلك اللحظة، يحس بفوران حامض المعدة في صدره، وتهيُّج الدم الذي يدْهَمُه دائمًا في لحظات التعاطف الخطر، وأبى أن يتذكر عامدًا، وبعناد شديد، ما جرى منذ خمسة عشر عامًا، حين دخل السجن خمسة أيام، من جراء تعاطفه المريض مع رجل أجنبي تعرف إليه مصادفة وصادقه، وكان في ذلك الوقت مجرد بائع لمناديل الورق في إشارات المرور الحمراء، ولم يلتحق بعدُ بوظيفته الحالية في فندق سواري. واتضح بعد ذلك أن الرجل الذي كان من أصل كوبي مطلوبٌ دولي في قضايا إرهاب وتفجيرات، واختطاف زعماء، ولو ركل عناده وأطل بنظرة حيادية، عبر السنين الطويلة التي مضت، لاكتفى باعتذار عاطفي صغير، دحرجه في ظهر الأفريقية، وهي تمضي في الليل، حاملة مأساة تخصها وحدها.

كان العمل في ذلك اليوم كثيفًا بشدة، فقد قدم إلى الفندق في أول المساء، ثلاثة من الأفارقة يأتون لأول مرة، ولا بد أنهم كانوا مهمين في بلادهم، أو لعلهم مهمون في الدنيا كلها، لأن معظم سكان الغرف تجمعوا في البهو لتحيتهم، حين عرفوا بوجودهم، زغردت لهم واحدة من عاملات الطبخ زغرودة طويلة صاخبة، واستخدم واحد من الجرسونات صينية حمل الأطباق، آلة إيقاع همجية وظفها لتحيتهم، وحتى مدير الفندق الذي لا يشاهده أحد

إلا نادرًا، ولا يعرف قسم السيد من أين يدخل ومن أين يخرج، ولقَّبه في سره بصاحب البوابة السرية، شوهد في ذلك اليوم، بابتسامة من صنع أسنان أكلها التبغ، ينحني أمامهم باحترام.. كانت هواتفهم المحمولة، ترن داخل جيوبهم بلا توقف، وسواعدهم قوية، وهي تمتد لمصافحة الآخرين، وحين تحدث أحدهم ليشكر الجميع على حفاوتهم، كان باستطاعة قسم السيد أن يسمعه بوضوح، وأن يفهمه، فقد كان يتحدث العربية نظيفة بلا أي اتساخ أجنبي. انتظر حتى اقترب منه أحد المحتفين، وكان يشعل هاتفه المحمول في وضع التصوير، يطارد الرجال من زاوية إلى زاوية. سأله بلهفة:

– من هؤلاء يا أخي؟

كان قد صنفهم سياسيين مرموقين، أو لاعبي كرة معتزلين يعملون سفراء للنيات الحسنة، تلك الوظيفة التي سمع بها كثيرًا ولا يعرف معناها. ثم عاد وصنفهم أعضاء فرقة موسيقية، ربما قدموا لإحياء حفل في البلاد، وكانوا في الواقع لا يشبهون السياسيين، ولا المغنين الذين تضج وجوههم مجونًا وصعلكة، وأبعد ما يكونون عن لاعبي الكرة، لأن أجسادهم فيها ترهل، وتعرجات، وعن المستثمرين الغازين للبلاد، الذين ألف وجوههم وحقائبهم، وأحلامهم التي تندلق حتى لو سعلوا.

– إنهم يوسفو ودوقاجي وسليمان بلو.

- ما أهميتهم بالضبط؟

- إنهم أكثر ثلاثة أشخاص في الدنيا بلا أهمية على الإطلاق. أنت أهم منهم، أي عاهرة في أي زقاق أهم منهم، أي متسول أهم، أي كانون يشعل فيه الفحم أهم.. أي دجاجة منزلية..

قاطعه قسم السيد وقد دَهَمَتْه دهشة مخبولة، والهاتف الكاميرا في يد الرجل، وكاميرات أخرى في أيدي رجال ونساء، ما زالت تطارد الزوايا، وتبتدع الصور، أكواب عصير الفراولة في أيدي الجرسونات، وعقود من الورد المتشابك في طريقها إلى الأعناق، وعدد من النزلاء تزاحموا على كتوف الرجال، وضعوا أيديهم عليها، ليحصلوا على صور تذكارية: كيف؟

- تأتي أهميتهم من كونهم بلا أهمية، هذه هي الحقيقة.

ردد حامل الكاميرا الهاتفية، وابتعد محاولًا أن يلتقط صورة لأحد الرجال الثلاثة، وهو ينحني ليحكم رباط حذائه.

والواقع أن يوسفو ودوقاجي وسليمان بلو، كانوا بالفعل، ثلاثة من أكثر الناس الذين بلا أهمية في أفريقيا كلها. لا زرعوا حقلًا ولا حصدوا غلالًا، ولا غنوا ولا رقصوا ولا لعبوا كرة قدم، أو حتى حجلة صبيانية، ولا أبدوا رأيًا سياسيًا أو اجتماعيًا في بلادهم قط، وما تأثروا بالعنصرية ولا غيرها قط، ولا كانوا أرباب أسر، أو أعضاء حزب أو نادٍ ليلي، وحتى ألعاب الورق وأغاني الصراخ

التي يجيدها الرضع في الأثداء، والمشردون في الأزقة، وساكنو علب الصفيح، ما كانوا يجيدونها، وخريطة أفريقيا نفسها لم يلقوا عليها نظرة قط، وسُئلوا مرة عن ليوبولد سنجور، وأجابوا بأنهم يسمعون باسمه لأول مرة. باختصار شديد، كانوا أنموذجًا أخاذًا للأفريقي المشتعل خمولًا حتى في غسيل أسنانه، وسلوك مخرج من مخارج عديدة تناديه باستمرار ليسلك أحدها. وأنشؤوا أخيرًا منظمة أهلية سموها منظمة غير المهمين، ويسافرون في العالم بلا انقطاع، لحصد الأتباع والدعم لها.

انشغل قسم السيد في محاولة فك شيفرة أهمية غير المهمين تلك، وبدت له أشبه بمسألة رياضية قديمة، أمضى سنوات الدراسة المتوسطة كلها في محاولة حلها، ولم يحلها حتى الآن. وتوصل إلى قناعة مهمة، وهي أن ثمة أمورًا في الدنيا يجب أن تكون كذلك، مجرد أمور فقط. لم تدهشه بعد ذلك حركات سليمان بلو، الذي كان يلم النقود المبعثرة على الأرض بلا حرج، ويحشو بها جيوب سراويله، ولا تلك الطوابير التي توقفت أمامه في البوابة، وتسأل بضراوة عن ثلاثة أفارقة غير مهمين يوجدون بالداخل، والصورة الكئيبة التي أصر يوسفو أن تلتقط له، وهو منشرح الوجه، بجانب كومة من الأوساخ في أحد الأركان، نسيت خادمة التنظيف أن تزيلها. وحين انتصف الليل أو كاد، تذكر فجأة أن مناوبته الرسمية قد انتهت

منذ وقت وما زال يعمل، بالرغم من أن بديله موجود وغارق في الكرنفال غير المهم، وأن ثمة امرأة مسكينة وجنيًّا تعاطف معهما هذه الليلة، ينتظرانه في الطريق من أجل حل. انتزع زميله من اللجة المحتفلة بصعوبة، سلمه البوابة ومتاعبها، وهرول إلى الطريق.

كانت سميتا باكار الغانيَّة موجودة حيث توقع أن يجدها بالضبط، تجلس على دكة واسعة من الأسمنت على بُعد شارع من الفندق، حيث تعود المطرودون من سواري، والفنادق الأخرى المجاورة والبيوت المفروشة، أن يجلسوا بلا أي اتفاق بينهم، وهم متشحون بالأمل، والصباح الرباح الذي يأتي بالفرج، وعلى مدى سنوات طويلة، جلس على تلك الدكة، التي كانت في الأصل ملحقة بسور إحدى الكنائس القديمة المهجورة في العاصمة، عشرات الذين خانتهم الظروف، أو أذلتهم جيوب الخواء، وهم غرباء في بلد غريب، جاؤوه لأي سبب من الأسباب. كانوا يملكون مداخل للتعارف، المداخل الكلاسيكية المعروفة، مداخل المصابين حين تجمعهم مصيبة. كل يحكي إخفاقه، وكل يستمع، كل يرسم مخرجًا محتملًا، وكل يود لو يسلكه، وربما كان لدى البعض زادٌ يقتسمه مع الآخرين، أو صور تذكارية يُشركهم في مطالعتها، أو حكمة مستقاة من كتب المآثر، يفكها من عقالها ويتركها ترعى، وربما يتغلغل التعارف إلى أبعد من كونه تعارفًا، فتحدث قصص حب

ولوعة بين رجال ونساء، وتنتهي نهايات سعيدة، أو قصص حب وهجر، تنتهي نهايات تعسة، ولكنْ في الأغلب يأتي الصباح رباحًا بالفعل، ويقصد معظم أولئك سفاراتهم العاملة في الدولة، لتتولى إعادتهم إلى بلادهم. كان ذلك حلًا أمثل لسميتا الغانيَّة، الجالسة الآن وحدها في الليل الغريب، ولا يوجد مطرود غيرها، لتحكي له ويحكي لها في ذلك اليوم بالذات أن الصباح ليس مجرد شمس مشرقة وضجيج في الشوارع، ولكنه درب ممهد لسفارة بلادها، لتتولى المهمة. لم تكن تريد العودة بشيطانها الخبيث قط، تريد إتلافه هنا بأي ثمن، حتى تعود إلى بلادها نظيفة، تشاهد دورتها الشهرية تتدفق في موعدها تمامًا، وتجف في موعدها بعد أن اضطربت كثيرًا، تستجيب لغزل (زاكوري باديجا)، مصمم الإعلانات الوسيم، الذي حاول عشرات المرات أن يغازلها، وطرده الجنّي بلا رحمة، تستأنف عملها الذي أهملته، منسقة للتغذية لدى طلاب المدارس، وتستطيع أن تشارك بلا حرج أو ارتباك في أي حفل موسيقي ملون، أو تظاهرة يشعلها المتحمسون لعودة الديمقراطية. حاولت ببسالة، وتحت ضغط الليل والغربة، والشارع الذي بدأ يسكن ويتوحش، أن تتذكر اسم المعالج الروحي الذي جاءت من أجله: ليس الحلمان، ليس الغشيم، ليس عابر البحر، ليس تمساح النيل، ليس العريض، ليس المتعارض، هؤلاء كلهم ذكروا أمامها من قبل عشرات المرات

أيامَ إقامتها في الفندق، ومُجدت سيرهم، ولم تشأ أن تغامر باختيار أحدهم، تريد الذي وصفوه لها هناك، ولا بد أنه في حجم الوصف ما دامت سيرته قد رحلت إلى غانا. ما اسمه؟ في أي حي يقيم؟ ما أوصافه؟ لا تتذكر. لا تستطيع، يقرصها الجنّي في أمعائها، وتتذكر أنها لم تأكل ولم يأكل منذ وقت طويل، ولم تكن لتهتم لو أنه جوعها وحدها، هو جوع اثنين.. يا إلهي.. لقد جربت كثيرًا أن تترك ذلك الخبيث يجوع، لعله يخرج باحثًا عن جسد آخر، لكنه لم يفعل. لمحت في اللحظة التي بكت فيها بمغص، موظف الأمن الضئيل المتعاطف يسعى باتجاهها، لم تكن واثقة أنه يملك لها مخرجًا، وقد حاورته مرات كثيرة أثناء وجودها في سواري، وعرفت أنه مثلها تمامًا: مجرد شخص لا أقل ولا أكثر. الفرق الوحيد أنه يملك جسده حرًا بلا مشاركة من أحد. ولأنها كانت تنتظره، كان من اللياقة أن تتصنع اللهفة، وأن تبتسم، وأن تشعر بامتنان أنه وفى بوعده، ومن ثم كانت تتلقاه حين وقف بجانبها وعلى شفتيها الضامرتين شبح ابتسامة.

- لماذا تأخرت؟

سألته بلغة العرب التي تعلمتها خصيصًا من أجل مأساتها، حتى تضع المعالج الروحي المفترض في القصة بلا وسيط.

- آسف، كان لدينا ضيوف مهمون، أقصد غير مهمين.

- لم أفهم.

- سأشرح لك لاحقًا.

كان خائفًا أن يخبرها عن ذلك الكرنفال الغريب، فتتنصل من تعاطفه وتعود إلى سواري، لتتوسل إلى زميله أن يدخلها، وتنضم إلى الصخب، وتطرد من جديد، وقد غدت الآن بفعل اشتعال التعاطف الكبير في دمه، أكبر غريقة في العالم، وهو طوق نجاتها المحتمل. لم يكن يحس بأي ورطة من أي نوع، ولا كان خائفًا من جنيِّها المفترض باعتباره وهمًا من صنعها، ويعرف كثيرين غيرها اخترعوا تلك المآسي وصدقوها، وعاشوا بها صرعى، أو ماتوا وهم يحملونها إلى القبر، وشاهد بعينيه رجلًا كان يقف طوال النهار سنوات طويلة في أحد الشوارع الكبيرة، كأنه تمثال من الحجر، وقيل يسكنه جنيّ، ويلزمه بتلك الوقفة الحجرية طوال النهار. كان يفكر وهو يسير بجانبها في ليل العاصمة المقفر، والمحتمل أن عددًا لا بأس به من النيات الخبيثة تسكنه، وتتحرك خلاله، في حل. بطاقته الأمنية كأحد حراس الفنادق، في جيبه، وهي في الواقع بطاقة ركيكة جدًّا، وفي الأغلب بلا نفع كبير إذا ما قورنت ببطاقات رجال الأمن الحقيقيين، أولئك الذين يفزع منهم الليل، وتنكمش المشاغبات في الصدور عند ذكرهم، وقد كان أحد أعمامه من هؤلاء، وعاش سلطته كاملة حتى تقاعد، ليكتشف قسم السيد، وتكتشف كل الأسرة، أنه مجرد عم عادي، فقط كان يرتدي جلبابًا منسوجًا

بخيوط من رصاص. يفكر في حل وتبدو الحلول عصية، والليل بدأ يتعالى، وتختفي أعمدة الإنارة، وهما الآن في زقاق معتم، وثمة كلب يعوي في مكان ما من العتمة، وأصوات حوافر، وقهقهات ملعونة، وصرخة فزع في أحد البيوت. لا يستطيع أن يأخذها إلى بيته الذي لم يكن بعيدًا عن المكان، وتوجد جدته التي تمتلك البيت وسكانه، وكانت تلقب بالعاصفة، لأنها كذلك وأكثر من كذلك، المرأة المسنة حين تنتصر على وهن الركبتين، وتتجول في الحي حاملة عصًا ومصباحًا، وتعارك اللصوص وقطاع الطرق، كأنها تعارك لقمًا هينة من اللحم المهروس. كان من المستحيل أن تستضيفها جدته بلا منغصات، وربما اعتبرتها خادمة جاءت هكذا هبة من السماء، في وقت شحت فيه خدمة المنازل، أو ميزتها عنصريًا بناءً على ثقافتها المتوارثة، أو صدقت قصة الجنّي الذي يسكنها وآذتها بالعصا من أجل إخراجه، وربما ـ في أحسن الأحوال ـ تتهمه شخصيًا بالفسق، وتسعى لفضحه في ذلك الليل المشؤوم. كانت ثمة فرصة كبيرة لقسم السيد أن يلعن مشكلة التعاطف تلك، أن يسبها ويسعى للتخلص منها في ذلك الزقاق، ولا يعود لارتدائها أبدًا. يعيد الغانيَّة إلى دكة الحزن، ويتركها للصباح الرباح، ويذهب بنفسه إلى سفارتها باكرًا، ليجلب موظفًا يتسلمها، ويعيدها إلى بلادها صاغرة، لكنه لن يفعل، ليست المشكلة وليدة اليوم، ولا الأمس، إنها بالضبط

مثل مشكلة سميتا، بلا حل. يسمع صوت المشكلة العميق ينبع من داخله: تعاطف إلى النهاية. يفكر بضراوة، وسمعها تسأله:

- ألستَ خائفًا من امرأة مسكونة؟

رآها ترتعد بشدة، وكأنه سمع شخيرًا فظًا ينبعث من حلقها أو حلق الليل، لا يدري. ليس شخير امرأة بأي حال من الأحوال. كانا يقتربان من فندق (تمرجي)، أحد أكثر فنادق العاصمة بؤسًا وفقرًا، حيث لا غرف على الإطلاق، ولا خدمة مدفوعة أو غير مدفوعة الأجر، ولا أي شيء بخلاف سرير متهالك على السطح، عليه لحاف من القطن المتناسل. كان الفندق مأوى لأبناء البلد القادمين من الأقاليم، مجرد جحر ينحشرون فيه ليلة أو ليلتين، ريثما يعثرون على أقاربهم المشتتين في العاصمة، وكان قُربُه من المستشفى الكبير، ومحطة السكك الحديدية، ووزارات الاحتكاك الجماهيري، والبنوك، يسهم في ازدهاره وامتلاء سطحه، وهو ما تعُدُّه الفنادق الأخرى الأكثر بُعدًا، وذات المواصفات نفسها، ظلمًا كبيرًا، وأنانية منه أن يزدهر هكذا، بينما أسطحها خاوية، بلا نزلاء بائسين.

تسأله، وقد خفت رعدتها قليلًا:

- إلى أين؟

لن يأخذها إلى تمرجي بالطبع، لأنه لا يليق بامرأة مهما كان وضعها أن ترقد على سطحه، وليس إلى فندق (سعلان) الأفضل

حالًا، لأن رواده من بدو الصحراء، تجار الإبل القادمين من بقع محكمة الانغلاق، وغالبًا ما يربكم ظهور امرأة أفريقية في وسط طقوسهم، ولا يملك في جيبه ما يجعلها تقضي بقية الليل في ضيافة محترمة، في واحد من تلك الفنادق التي تشبه سواري، أو تقترب منه. كان لحسن الحظ أن الليل برغم وحشته أخفاهما بجداره، لم يصادفا شبحًا مترنحًا، ولا نية خبيثة، ولا عربة من عربات حفظ النظام العام، التي تمتلئ بالسخرية والقناصين، وأغلال الحديد التي لا تملك أفقًا يستوعب قصة محزنة، مثل قصة سميتا، أو تفهم أن ثمة تعاطفًا يمكن أن يجعل حارس أمن في أحد الفنادق يجر نزيلة أفريقية في الليل، بلا هدف سوى أنه تعاطف معها. كانت العربات القليلة التي صادفاها عربات مسالمة، مرقت بقربهما سريعًا وتلاشت، وكان الشخص الذي لم يسألهما قط صيدلانيًا مساهرًا، يستمع إلى إذاعة بي بي سي من راديو صغير، وهو يجلس أمام صيدليته. كانا قد عبرا قضبان الحديد، ودخلا إلى محطة القطارات من بابها الخلفي غير المطروق، حيث توجد عدة عربات مهجورة، وبعيدة عن السفر، كانت فيما مضى بيوتًا ليلية للمشردين، وأوكارًا محتملة لعصابات الإجرام بشتى تخصصاتها، وقامت السلطة منذ عدة سنوات بتجريدها من تلك الصفات، لكنها لم تغلقها، أو تسعى إلى ترميمها، وإعادتها إلى سكة السفر، وتركتها هكذا خاوية ومهجورة، ومسلحة بسمعة أنها

تحت عين السلطة، فلا يقترب منها أحد. كان قسم السيد محارب يعرف كل تلك المعلومات عن عربات السكك الحديدية المهجورة، وكان من بين الذين تجمهروا ذات يوم ليشاهدوا الشيوعي المطارد (فتح الله رمرام)، يخرج من إحدى تلك العربات، بعد أن قضى فيها سبعة عشر عامًا، ونبشت السلطة العاصمة وضواحيها، وكل مدن الأقاليم بحثًا عنه ولم تعثر عليه. وقال في حوار متعجل سرقه منه أحد الصحفيين لحظة اعتقاله، إنه كان يستطيع من نافذة تلك العربة المهجورة، أن يشاهد مواكب الرئيس والوزراء والمسؤولين وضيوف البلاد الأجانب، تعبر باستمرار، يشاهد مواكب الغضب، وبوادر الانقلابات في صباحاتها المبكرة، وقام بعقد قرانه، وقضاء شهر العسل، ورزق أربعة أطفال، وطلق زوجته التي رحلت بأطفالها، وإنه سيطالب بأن تسمى تلك العربة: دار فتح الله، عند أول عودة للديمقراطية إلى البلاد. وفي حوار متأن أجري معه بعد ذلك، وبعد أن حظي بعفو رفيع المستوى من رئيس البلاد، ونودي للمشاركة في التنمية، ونبذ خلافات الماضي، قال إنه كان يتنفس أحيانًا بعيدًا عن تلك العربة، يعمل في سوق الفحم، بائعًا ومشتريًا، يهنئ في بعض مناسبات الأفراح، ويعزي في العزاءات، وأقام ثلاثة أيام كاملة في سرادق عزاء أنشأه رئيس جهاز الأمن الوطني بمناسبة وفاة أخته، وصادف في ذلك السرادق عددًا كبيرًا من الكوادر المؤهلة، صافحوه

بحرارة، من دون أن يخطر في بالهم أنهم يصافحون طريدة، نبشوا الدنيا بحثًا عنها، ولم يجدوها.

كانت فكرة محارب التي خطرت له في تلك اللحظة هي أن يقضي بقية الليل برفقة سميتا في إحدى تلك العربات، لن يفتقده أحد في البيت، وتعلم جدته أنه يتمرد أحيانًا على قوانين انضباطها الصارمة، ويتصعلك، ولا تقول شيئًا. ويعلم إخوته، لا عن يقين، ولكن بدافع المساندة الأخوية فقط، أن مناوبات حراس الفنادق، قد تمتد أحيانًا حتى الفجر، وربما إلى فجر اليوم الثاني، أو الثالث، فلا يصابون بالقلق، ولن يفعل أبوه ولا أمه شيئًا، لأنهما ماتا تباعًا منذ زمن طويل. اقترب من عربة انتقاها بعناية، وتحسسها على ضوء الإنارة الباهت الذي ينبعث من أحد الأعمدة المترنحة، تحقق من اتساخها، وأن بابها محروس بخيوط عنكبوتية كثيفة، ومن ثم شد سميتا إلى داخلها، وجلسا مستندين إلى خشبها المترب. معضلة الليل المشرد قد حلت بلا شك، ومعضلة الصباح الرباح سيتركها إلى وقتها، وفي اللحظة التي كاد فيها يغفو، خطرت في باله فكرة مزرية. لماذا لا يتزوج سميتا؟ نعم، لماذا لا يتزوجها، وبداخلها جنيٌّ لن يطالبه بمهر وطقس عرس وزفة ومغنين وتوافه بلا حصر. ومضت الفكرة للحظة في الذهن شبه الغافي، ثم ابتلعها الشخير: شخيرٌ أفريقي منهك، وشخيرٌ محلي متعاطف.

- ٢ -

صباح اليوم التالي، وعلى صرخة مفزعة من صافرة أحد القطارات القادمة من بعيد، أو المسافرة إلى ذلك البعيد، هبَّ قسم السيد محارب من رقدته المشردة. كان فوران الصباح الذي يحس به صلبًا في كل يوم من تحته حين يستيقظ في الصباح منذ دخل إلى فئة البالغين، منعدمًا في ذلك اليوم، بنطاله الأزرق الفضفاض مترب بشدة، وقميصه الأزرق الفضفاض أيضًا قد لعق حبالًا من خيوط العنكبوت الكثيفة المعششة في العربة المهجورة، وكانت ثمة خمس أو ست عناكب شقية، تتمشى على جسده من دون خوف. هبَّ فزعًا، تراقصت في ذهنه ذكرى ليلة البارحة الغريبة، وتراءت له الأفريقية في الركن المقابل، متكئة على حقيبتها القماشية، وغارقة في فوضى نوم ذليل، بلا أي حركة، أو مؤشرات لاسترداد كرامة نوم النساء، شعرها الخشن القصير، منكوش ومغبر، قميصها الأصفر المزخرف بخيوط حمراء، مرفوع حتى صدرها، تبدو سرتها متسخة، وأسرار لحمها الخفية ما عادت أسرارًا، كانت مكشوفة لعينيه، وتذيع نفسها بضراوة، ولولا أنَّ ثمة تعاطفًا جبارًا موجودًا في الدم، ومتعاطفًا

مريضًا محمومًا وغارقًا في مهمة إغاثة امرأة ضائعة، لغدت تلك الأسرار وجبة كاملة البهارات يلتهمها بنهم. أبعد عينيه بسرعة، ووقف يتأمل الحياة من نافذة العربة المهجورة. كانت الشوارع التي يستطيع مشاهدتها من مكانه مزدحمة بنزيف الصباح، طلابِ مدارس صاخبين، وموظفين يسيرون بخطى نائمة، ومتسولين وعاطلين، وعربات مكدسة، وأبواق متذمرة، ورياضيين يركضون في الأرصفة، وقد تقاطر منهم العرق. تذكر حياة الحزبي فتح الله التي دامت طويلًا في عربة مماثلة، وكيف كان يستنشق الحياة، ويستطعمها من خلف نافذة، وتخيل أن تكون حياته في تلك العربة مثيلة لحياة الحزبي، لكن لا مجال. كان الحزبي بلا شك، يملك أعوانًا مطلقي السراح، يمدونه بمقومات الحياة حتى لا يموت، أسهموا في زواجه، ونقل امرأته إلى غرف الولادة، وتغطيته معنويًا حين يخرج لاستنشاق البلاد وشم تغيراتها، وهو لا يملك سوى تعاطف مجنون، يربكه دائمًا، ويتركه حاضرًا ضروريًا في مواقف غير ضرورية على الإطلاق. لا أحد يبكي لأن آخر قد بكى، لا أحد يتمزق لأن صاعقة مزقت أحدًا، ولا أحد يتشرد في الليل لأن واحدة طردت من فندق وتشردت، والآن الصباح موجود وكامل، ولكن أين الرباح؟ هل يكون ثمة مكان آخر يضع فيه سميتا ريشها تحسم أمر الجنّي؟ هل تكون رحلة علاج يرافقها فيها حتى تنجح أو تخفق؟ هل يقدم بلاغًا لسفارة

غانا في العاصمة بأن امرأة من مواطنيها تتشرد في الغربة بنصف عقل، وحقيبة قماشية، وبلا جنيه واحد؟ عاد إلى مواجهة النائمة المشتتة، وقد تحركت كما يبدو، ضمت ساقيها إحداهما إلى الأخرى، وحجبت السر، وكانتا ساقين ممتلئتين، وتشبهان سيقان العداءين، اتجه إليها وهزها من كتفها، فانتفضت، وكانت في كامل حضورها الذهني، بلا أي تشويش، كما كان يتوقع، تعرف مأساتها جيدًا، وتعرف أنها أذلت نومها، حين ارتخت به، في عربة سكك حديدية مهجورة، وبرفقة رجل كانت تعرفه وظيفة فقط، ولم تقترب منه قطّ إنسانيًا من قبل. وحين شاهدت قميصها مجعدًا عند سرتها، ولا أثر لأي محاولة اقتحام، ولا حتى أثر لمسة كانت ستزيل الغبار المتراكم على ساقيها لو حدثت، اكتستها فجأة رعونة المرأة المهجورة، وغير المغرية في لحظة الانفراد، وأيقنت بما لا يدع مجالًا للشك أن شيطانها الذي لم تسمه حتى الآن، وتفزع من محاولة تسميته، خوفًا من أن يعتاد لسانُها اسمَه، ولا يخرج عن جسدها حتى تموت، قد وقف حاجزًا منيعًا بين أنوثتها ورجولة رجل الأمن الضئيل، تمامًا مثلما أبعد مصمم الإعلانات الذي تحبه في بلادها من حياتها بلا رحمة. بكت قليلًا، ثم سكنت، ولم تكن تعلم أنها الآن ليست أنثى في نظر قسم السيد على الإطلاق، ولن تكون أنثى حتى تنتهي مهمة إغاثة امرأة أفريقية التي رسمها تعاطفه، ولن يتخلى عنها حتى النهاية،

وبرغم أنه فكر في الزواج بها في الليل، وتحت وطأة لحظة مخمورة بين النوم واليقظة، فإن ذلك كان جزءًا من المهمة نفسها، وبدافع أن يمنحها عدة أمتار في غرفته الضيقة، يمنحها وجباتها، ووجبات جنيها المرافق، وربما لن يقترب منها اقتراب الأزواج على الإطلاق.

قبل عام استدعاه رئيس حراس الأمن في فندق سواري، وأطلعه على تصرفات تُعد في عُرف حراسة الفنادق، والمنشآت الوطنية عمومًا، تصرفات خرقاء، وغير مسؤولة:

- ما معنى أن تترك البوابة بلا رقيب، لتبكي على كلمات أغنية هجر، تنطلق من حافلة متوقفة في الطريق؟

- ما معنى أن تجادل نزيلًا في الفندق، لأنه لم يتأثر بخبر موت لاعب كرة أثناء مباراة، واستمر يأكل عشاءه أثناء إذاعة الخبر؟

- ما معنى أن تسمي الناس أعمامك، وأخوالك، وهم ليسوا من وطنك حتى؟ وما جدوى أن تكون مهلهلًا هكذا، ومهملًا في تفتيش الحقائب، وآلاف الأخطار يمكن أن تحدث من جراء هذا الإهمال؟ هل تريد ترك الوظيفة يا أخ؟

لم يكن قطعًا قد فكر في ترك الوظيفة، والتي برغم متاعبها وشح إيرادها، تمنحه إحساس موظف يملك نفسه، ولا يحتاج للآخرين إلا نادرًا، إضافة إلى أنها توفر له الكثير من خامات التعاطف من دون عناء. وقف أمام رئيسه مرتبكًا، ويحس برغبة شديدة في التعاطف

معه، وبرغم أن الموقف كان فظًا، وفي غير مصلحته على الإطلاق، لكنه أحس بأن الرجل مكتئب بلا شك، وربما ليس على وئام مع امرأته أو ولده الذي ترك الدراسة، ويعمل حلاقًا في صالون وضيع. غاص في عينيه، واستخرج منهما بدايات دمع توشك أن تتكون، نبش وجهه الغاضب بتأن، واستخرج علامات شحوب واصفرار ووهن، لم تكن في الواقع موجودة، وحين شاهد يديه ترتعشان من حدة الغضب، وسقط من يده قلم حبر فاخر فانكسر رأسه، تذكر أن واحدًا من جيرانه كان مرتعش اليدين هكذا، وشخصوه بمرض الشلل الرعاش، ليتصلب جسده كله، ويفقد الذاكرة بعد ذلك. أراد أن ينبه رئيسه إلى خطورة مرضه، وخاف أن يفهمه الرئيس فهمًا خاطئًا، تمامًا مثلما يفهمه كل الناس، اكتفى بأن ردد بصوت خفيض:

- أحب عملي يا سيدي.
- الذي يحب عمله يخلص له.
- نعم يا سيدي.
- إذًا لا مشكلات ولا إهمال بعد الآن. هل تفهم؟
- نعم.

انصرف قسم السيد من أمام رئيسه وهو يحس بالأسى حقيقة، وبأنه كان من واجبه أن ينبهه، ويرافقه في رحلة البحث عن طبيب متمرس، يتصدى لأعراض مرضه قبل أن يفقد الذاكرة ويتصلب،

انشغل بتلك الأفكار الكئيبة بقية اليوم، وعدة أيام أخرى بعد ذلك، حتى جاءته فرصة لتعاطف جديد، وقوي، فأفلتها.

نفض التراب عن زيه الرسمي، وساعد سميتا الأفريقية على غسل وجهها وساقيها، بأن جلب لها بعض الماء من زير فخار كان قريبًا من المكان. ساعدها على تنسيق شعرها الخشن، ووضع مكياجها على الوجه، بأن أشار لها إلى تلك البقع التي بحاجة إلى ترطيب أكثر، وتلك التي يجب رشها بالبودرة، وما كانت تملك مرآة في حقيبتها. وحين أرادت أن تستبدل بثوبها المتسخ ثوبًا نظيفًا ومرتبًا أخرجته من حقيبتها القماشية، اتجه إلى النافذة وانشغل بمراقبة الطرق المزدحمة، وكان يستطيع أن يرى بوضوح نزف الحياة وقد غدا أكثر اكتمالًا في قلب العاصمة الكبيرة.

كانت مناوبة قسم السيد في فندق سواري تبدأ عادة في التاسعة من كل صباح، وتمتد حتى التاسعة ليلًا، وأحيانًا إلى أبعد من ذلك، حين يكون ثمة زحام على البوابة، يحتاج إلى أكثر من ذهن، وأكثر من يد، كما حدث في ليلة أمس، حين قدم الضيوف غير المهمين. كان يريد إلغاء المناوبة في ذلك اليوم. لا يستطيع العمل، والتعاطف فائر في دمه، ومهمة إغاثة امرأة ما تزال في بدايتها، ولا يستطيع إكمال المهمة بلا تفرغ. أخرج من جيبه عدة جنيهات، وكانت في الواقع، آخر جنيهات تبقت من راتبه في ذلك الشهر، سلمها للمرأة عن

طيب خاطر، ودلها على كشك صغير، مغروس في واجهة المحطة، يبيع شطائر الفول والطعمية، وشراب الشعير المثلج، طلب منها أن تأكل لنفسها، وتترك الجنّي جائعًا في الوقت الحاضر، وتنتظره وسط المسافرين حتى يعود، وانفلت عائدًا إلى سواري، سالكًا طريق الليل نفسه، وقد فرض الصباح سيطرته كاملة، طاردًا شخير الليل وأشباحه المتخيلة. شاهد الزحام أمام فندق تمرجي، والخواء أمام الفنادق الأخرى التي تشبهه، شاهد عشرات من البدو يخرجون لشم المدينة، وهم يرتدون ثياب الصحراء كاملةً، وبجفافها واتساخها نفسيهما، والصيدلاني المساهر ما يزال على مقعده، يتابع نشرة صباحية على بي بي سي، وكان ثمة خبر عريض عن سفينة إغاثة متجهة إلى فلسطين، ضربتها طائرات إسرائيلية، وثورة شعبية جارفة تحدث الآن في تونس. حين وصل إلى سواري، كان الوقت ما يزال مبكرًا، وكان زميله الذي تسلم منه مناوبة الليل جالسًا في مقعد العمل، ولا تبدو على وجهه آثار سهر أو تعب. على العكس كان منشرحًا، لم يبد استغرابه من حضوره المبكر، وملابسه المغبرة، وحدثه عن فتح التعيينات في سلك الشرطة، وأنه ذاهب لتقديم أوراقه. كان ذلك الزميل، وبحكم زمالته القديمة لقسم السيد، يستطيع أن يتكهن بنوبات مرض التعاطف لديه، وما كان بحاجة إلى سؤاله، وانتظار إيضاح منه، منحه عشرة جنيهات على سبيل

الدين، من دون أن يطلبها، وتطوع لتغطية مناوبته في ذلك اليوم، آملا أن يعوضه تلك التغطية في يوم آخر، حين تنقشع نوبة المرض.

كان بهو الفندق شبه فارغ، ثمة رجل أجنبي في أواسط العمر مندس خلف صحيفة إنجليزية مفرودة، وامرأة شديدة البدانة أمامها عدة أطباق من الحلوى شبه فارغة، تحاول النهوض من مقعدها ولا تستطيع، وأمام شاشة التداول اليومي للعملة، ثمة آسيويان منشغلان بالمتابعة. لم يكن هناك أثر للأفارقة غير المهمين، ولا كرنفال الترحيب بهم، الذي هيج الفندق في الليلة السابقة، فقد رحلوا في الواقع إلى غرب البلاد، مستقلين طائرة مبكرة. كانت ثمة قرى كثيرة غير مهمة هناك قد احترقت، وقبائل غير مهمة أبيدت، وإغاثة غير مهمة لم تصل إلى أفواه غير مهمة على الإطلاق، واستطعم الأفارقة تلك الأنباء، وعَدُّوا الغربَ منطقة مناسبة لغزوها ميدانيًا، واستقطاب أهلها، لمنظمة غير المهمين التي أنشؤوها، ويطوفون عالم الكوارث كله من أجل خاطرها، ومن ثم رحلوا. تقبل قسم السيد جنيهات زميله، وعرضه أن يحل مكانه، وهو يقاوم التعاطف معه، فقد كانت تلك شروط الزميل التي وضحها له في أول يوم عَرَفَ فيه أنه مريض بالتعاطف: ألا يتعاطف معه أبدًا، وإلا خسره إلى الأبد، ألا يحس بالأسى حين يشاهده حزينًا، ألا يسأله عن برجه، وظروف معيشته، وخطيبته التي تركته فجأة، وأخته المعاقة، وأبيه

الذي طلق أمه، ولا يزوره في بيته ولو سمع أنه انتحر بتعليق رقبته في حبل. جادله قسم السيد كثيرًا في تلك الطروحات التي اعتبرها مسيئة بشدة للصداقة، وأخيرًا اقتنع، وما عاد يتعاطف مع زميله أبدًا، حتى بعد أن عرف أنه أصيب بجفاف العين، ومضطر لشراء قطرة (السيستان) المرطبة الغالية باستمرار ليستطيع الإبصار جيدًا. يعرف أن الزميل غير لائق طبيًا في نظر القوات النظامية، وأنهم لن يستوعبوه في سلك الشرطة حتى لو تشقلب ومشى على يديه، أو أظهر براعة فائقة في رش الغاز المسيل للدموع المستخدم بكثافة لدى تلك القوات، ولا يستطيع إخباره بذلك للأسف، ومشاركته الحزن بعد أن يعرف. وضع الجنيهات العشرة في جيبه، وانطلق عائدًا إلى محطة القطارات، حيث ترك سميتا الغانيَّة منتظرة. لم تكن في ذهنه أي خطة حتى الآن، وتمنى أن يعثر على واحدة قبل أن يصل، وفي اللحظة التي بلغ فيها المحطة، وشاهد الأفريقية جالسة على أحد مقاعد الخشب وسط مسافرين قلقين، يطالعون الرصيف الخالي بلا توقف، وعلى الأرض أمامها ورقتان فارغتان من تلك التي تلف بها الشطائر، تذكر المغنية سنابل، صاحبة فرقة (أخوال فاطمة) الشعبية، التي يعرفها منذ سنوات طويلة، وأدى لها خدمات جليلة في الماضي، وبدت له في وسط لجة القلق التي تحاصره حلًا مؤقتًا سيسعى إليه حالًا، وبأسرع ما يملك من خطوات. ابتسم لسميتا، شدها من

يدها، وخرج بها إلى الطريق، حيث محطة الحافلات العمومية القريبة من المكان، وحيث سيحملها على ظهر حافلة إلى الحي الذي تقيم فيه سنابل. وكان من الأحياء شبه الراقية، ويليق بواحدة مثل المغنية، لها طقوس ومعجبون، وأشرطة كاسيت تباع حتى تحت ظلال الأشجار ومعاهد الصم والبكم.

- ٣ -

كان قسم السيد محارب، وكارثته التي يجرها منذ ليلة أمس المرهقة، واقفين أمام البيت السادس إلى اليمين من الشارع الواسع، الذي يتفرع من شارع أوسع، يتفرع بدوره من شارع الإسفلت المزدهر بالناس والتجارة، حيث أنزلتهما الحافلة. لم تكن ثمة كتابة على الباب المصنوع من حديد متشابك، ومصبوغ ببني لماع، لا اسم ولا تعريف كما اعتادت أبواب البيوت أن تحمل في تلك الأحياء شبه الراقية، بينما كراج شبه مفتوح، يطل منه هيكل عربة من ماركة همر رصاصية اللون، وحافلة صغيرة بيضاء، سعة اثني عشر راكبًا، ملتصقة بالحائط قريبًا من الباب، وقد كتب على جانبها بخط أسود متعرج:

فرقة أخوال فاطمة الغنائية. أفراحك أفراحنا.

حين شاهد قسم السيد تلك الكتابة منذ عدة سنوات على جوانب عربات متعددة تعاقبت لدى فرقة أخوال فاطمة اعتبرها كتابة متعاطفة، ويعرف تمامًا كما يعرف غيره تلك الطاقة التدميرية التي تعمل بها الأفراح في البلاد، وتدخل الزوج إلى زوجته في ليلة العرس، متسولًا لا يملك سوى إرهاصات شهوته. فسرها بمفردات علته المزمنة، وأنه ما دامت أفراح الناس هي أفراح سنابل

وفرقتها، فمعنى هذا أنها تحييها مجانًا لوجه الله، أو بمبالغ رمزية لا ترتقي لمستوى الخسائر.. أراد أن يعمم ذلك المعنى الذي اقتنصه على كل من يعرفه، وسأل قبل أن يفعل ليكتشف أنها مجرد دعاية كُتبت كما تكتب الدعايات جميعًا، وكم من مرة شاهد مخابز كتبت على لافتاتها: نحن الأفضل، وتنتج رغيفًا بلا لون ولا طعم، أو مرشحًا انتخابيًا في المجالس البلدية، خاض حملته برمز قوس قزح، وحين فاز، كان عهده جفافًا طاحنًا.

كانت سنابل المغنية مشغولة بشدة في تلك الأيام، وتستعد للسفر إلى دولة مجاورة للمشاركة في احتفالات خاصة، كما اعتادت في كل عام، وكان حاكم إحدى المقاطعات في تلك الدولة قد استلطف صوتها وغناءها، ولسانها الأحمر الرطب، أثنى بصفة خاصة على شعرها الذي اعتادت صبغه بألوان علم بلاده حين تذهب، ورفعه خفاقًا في سماوات الحفلات التي تحييها هناك، وبصفة أكثر خصوصية على نوع المانيكير الذي تدهن به أظفارها، وكريم ترطيب البشرة الذي تضعه على وجهها. وفي العام الماضي، فاجأها شخصيًا حين استدعى جميع مدرسي الفنون في مقاطعته، ونبههم إلى ضرورة أن يفهموا معنى الإبداع المتفرد، وكيف أن مغنية واحدة تأتي مرة في العام تترك جو البلاد معطرًا بالفرح حتى تعود. قال لها:

- اطلبي غذاء شبابك الدائم وأنا أسدد.

في الأحوال العادية، ولو كان السؤال موجهًا إلى (كابي لوشين)، الشابة التي يمكن أن تشيخ فجأة من جراء خشونة العمل في قصره، وأنها تقضي أيامًا طويلة بلا نوم يُذكر، لطلبت رغيفًا حارًا وقطعة صغيرة من لحم الضأن، وربما رشفة من حساء السمك الذي تطهوه ولا تستطيع تذوقه أبدًا، لو كان موجهًا إلى جوكوني كلكال، بستاني حديقة القصر الذي شاخ بالفعل وهو يزرع ويسقي وينسق، لطلب كوخًا من القش في قريته المهملة، يقضي فيه بقية العمر. لكن صاحبة فرقة أخوال فاطمة الغنائية أيقنت في ذلك اليوم أنها عثرت على منجم للذهب من دون أن تنقب عنه. لم تكن فقيرة بالقطع، حتى قبل أن تلتقي حاكم المقاطعة المندلق لأول مرة أثناء زيارة له للبلاد، ولا عُرف عنها منذ لمعت أنها مشت حافية ذات يوم، أو نامت بلا عشاء، أو وقفت في مسارح الغناء بلا أساور من الذهب ذي العيارات، وفي السنوات الأخيرة بالذات، امتلكت شعبية أهلتها لأن تبدي عدم رضائها عن الحديد الكوري الذي سطا على وسائل النقل في البلاد، وأن تذم واحدًا من الشوارع الكبيرة علنًا، متغاضية عن اسمه الذي يعني كثيرًا لدى السلطة، وتتسبب في إلغاء ترخيص شركة كاملة للمقاولات فيها موظفون وعمال، وحديد وأسمنت، وعقود عاجلة وآجلة، لأن اسمها كان شركة سنابل، مما اعتبرته تعديًا على اسمها. منجم كهل، ومبتسم طوال الوقت، وممتلئ بالعملات كلها، من

اليورو إلى اليوان، ولا بأس من غرفه، ويوجد المثل الذي يقول، إن البحر لا يأبى الزيادة، وبحرها الشخصي لن يأبى. في ذلك اليوم، تسلم الحاكم أثناء قيلولته التي يقضيها عادة بإنزال صوره برفقة الحسناوات على مواقع إلكترونية، مثل فيس بوك وتويتر، ورقة طويلة ممتلئة بغذاء متفرد لم يُغفِل حتى جهاز المشي الكهربائي ماركة جلاكسي، وشامبو البانتين المزيل للقشرة، ومقاييس الدهن الحساسة، التي تقيس الترهل في الجسد قبل أن يتكون.

كانت مشغولة في تلك الأيام، ترتب ثيابها التي فصلتها حديثًا، وأحذيتها المتعددة، في حقيبة فاخرة من الجلد، وتفرغها، ترتبها مرة أخرى، وتفرغها. تزيل الشعر غير المرغوب فيه من أماكن مرغوب فيها بشدة في جسدها، وخلطت بالفعل تلك الأصباغ التي تمثل علم بلاد مضيفها، تمهيدًا لوضعها على شعرها. أوعزت لكلب الحراسة الضخم الذي تملكه أن ينبح بلا توقف حين يشم زائرًا بلا موعد، وإلى خادمتها الإثيوبية أن تغلق باب الزيارة في وجه كل طارق، حتى لو كان محافظ العاصمة شخصيًا. ولما كان الطارق في تلك اللحظة مجرد حارس أمن ضئيل في فندق سواري، يجر مصيبةً تعاطَفَ معها، وتعرفه الإثيوبية جيدًا بحكم تردده إلى بيت المغنية، وتأدية خدمات خصوصية لها، فقد تمردت عن الصد وأدخلته، وفي ذهنها وظيفة غير محددة، ستحتلها ـ لا بد ـ تلك المرأة الأفريقية التي برفقته.

استقبلته المغنية بوجه بارد جاف التقاطيع، وبعد خمس دقائق فقط من جلوسه برفقة سميتا في صالون واسع مزدان بالصور، والرسومات، وجلود الغزلان والثعالب التي تتدلى على الحوائط، على عكس عادتها في الماضي، حين كانت تتركه ساعة أو ساعتين وأحيانًا عشر ساعات، قبل أن تحضر. لم تترك له فرصة أن يقرص الغانيَّة في يدها، ينبهها إلى ضرورة إخفاء جنِّيها جيدًا، ومحاولة تكميمه، حتى لا يفسد مهمة إيوائها المؤقت. ويعرف أن المغنية ذات جذور تمتد إلى قبائل البجا، المتوطنة في شرق البلاد، والتي ترتعد من شيئين: لون الدم، وسيرة الجن. كان خائفًا أن يصدر ذلك الشخير غير المحتشم، الذي سمعه أثناء سياحة البارحة الليلية، وتَحْدُث ثمة بلبلة. كان وجه المغنية غارقًا في المساحيق التجميلية: شيء من (ويلا)، شيء من (جياني)، وشيء من (كوكو شانيل)، شعرها في مرحلة ما قبل أصباغ العلم، مبتل ومبعثر، وترقد خصلات غزيرة منه على كتفيها. أنفها يبدو أحمر قليلًا، كأنه خرج من عراك أنفلونزا، وإحدى عينيها زرقاء، إذ كانت في قمة انشغالها قد وضعت عدسة واحدة وأغفلت وضع الأخرى. ترتدي ثوبًا مطرزًا، وحذاء من الجلد عليه رسوم إيروتيكية، وكان من الأحذية التي تفضل ارتداءها في المسافة ما بين الحمام وسرير نومها، ويراه حارس الأمن لأول مرة، ويحس بالصدمة، لن يتعاطف مع هذا الحذاء أبدًا، وقد ينبهها إلى أنه

عورة واجبة الستر. وقفت تتأمل حارس الأمن، وسميتا الساكنة في مقعدها، برغم رعشة عينيها، وتحاول بقدر الإمكان أن تختصر تفكيرها، فلا تفكر إلى أبعد من كونها امرأة ضائعة عثر عليها محارب أمام الباب، وأدخلها، وتعرف جيدًا مقدار ما يكنه من تعاطف للدنيا كلها. كانت تتحدث بصوت غير صوت الطرب، صوت فيه رائحة استياء:

- ماذا تريد في هذه الساعة يا محارب؟ .. لم أطلبك.

غير صحيح أبدًا ما ورد في حديثها عن الطلب، فهي لم تطلبه حين أحضر لها الولد المتشرد (سفيان كرو كرو)، بعد أن شاهده يومًا في الطريق، ينقر بفن على سطح إحدى السيارات المتوقفة، ويتراقص العابرون على إيقاعه، وأصبح فيما بعد واحدًا من أهم عازفي الإيقاع في فرقتها، والبلاد كلها. لم تطلبه حين جاء برفقة جيش من أصدقائه المخلصين، شمروا عن سواعدهم، ومهدوا الطريق إلى بيتها، حتى تشقه عربتها الهمر الجديدة من دون أن تهتز، أو يتسخ لونها، وما فعلت حين سمع أن ثمة مغنية جديدة تتمرن في السر على يد ملحن معروف، وعلى وشك أن تشتعل إعلاميًا وتصبح قنبلة، وجاءها راكضًا ليحذرها، وكان أن تصدت للأمر، وأعادت المغنية الجديدة إلى سكة البداية، مجرد ربة بيت تطبخ وتكنس، وتهوى الغناء، وتدندن به لنفسها في بيتها فقط. وأهم شيء لم تطلبه إطلاقًا،

وقدمه لها عن طيب خاطر، هو حاكم المقاطعة الكنز، الذي تستعد الآن للسفر إليه، وكان قد عثر عليه في فندق سواري محاطًا بالترف والحراس، ويبحث عن مغنيات يانعات، يشاركنه في الأفراح التي يقيمها سنويًا في بلاده.

في البداية، وتحت ضغط خدماته المتواصلة، ظنته أحد الساعين إلى حبها، بعد أن طُلقت من زوجها العسكري، الذي كان يعاملها بلا فن، قضت في هذا الظن أشهرًا طويلة، حاولت فيها بكل ما استطاعت من جهد أن تستخلص من عينيه نظرة، من فمه ابتسامة، من شفتيه سلامًا وكلامًا، حتى تعذبه وتفتك بحبه، ولم تستطع، لا يوجد عنده سوى التعاطف، ليس معها وحدها، ولكن حتى مع قطط الطريق، وكلابه الضالة. ثارت في تلك الأيام ثورات متعددة، وأخبرته صراحة أنها ترفض توظيفه سائقًا، أو ساعيًا لديها، ولم يكن في الحقيقة قد طلب منها وظيفة قط. على صعيد آخر، وبعد خدماته الجليلة كلها، سأل قسم السيد نفسه: لماذا أخدمها؟ ولم يعثر على جواب البتة.

- ماذا تريد يا حارس؟ ومن هذه المرأة التي معك؟

محارب الضئيل بلا مصلحة، وما كانت ورطاته كلها من أجل مصلحة، ومنذ البارحة بالذات تشرد في الشوارع، وعربات السكك الحديدية المهجورة، وسحب عينيه عن سر يحبه الرجال بلا أي

مصلحة. وكلمة (هذه) الخشنة الجافة التي نطقتها، وهي تشير إلى المرأة المشردة، بالذات أزعجته جدًّا. ليت المغنية تخفف من لهجتها قليلًا، لتترك له فرصة يتعاطف فيها مع العين الزرقاء، التي ظنها قد تلِفَتْ فجأةً من جراء تجميل خاطئ.

- في الحقيقة..

تلعثم أولًا، ثم تسلم سكة الحكي بتدفق. حكى لها مأساة سميتا كلها، من دون أن يتطرق إلى الجنّي الذي يسكنها بالطبع، وهو يأمل أن تكون الأفريقية قد فهمت، فلا تفضح نفسها. قال: امرأة مسكينة جاءت تبحث عن زوجها الذي اختفى فجأة، وسمعت أنه موجود في بلادنا، ونفدت مواردها كلها، ولم تعثر عليه بعد، وأشار إلى أنه يأمل أن تبقيها في بيتها أيامًا معدودة حتى يُدبِّر لها مكانا آخر، أو يعثر لها على الزوج المفقود.

كأن الأفريقية فهمت لأنها تحدثت لأول مرة مؤيدة قصته، وكانت كلماتها واضحة، برغم تعثر اللغة الذي لا بد منه لدى كل الشعوب عندما يتعلمون لغات جديدة. وكأن المغنية تعاطفت، لأنها جلست، وصرخت في الخادمة أن تحضر، وكلفتها بنقل حقيبة الضيفة إلى غرفة الخدم الملحقة بالمنزل، والتي تقيم فيها الإثيوبية، وخادمة أخرى من بنات البلد، متخصصة في الطبخ فقط. وحين نهضت، إيذانًا بانتهاء تعاطفها الشخصي، ولأنها في قمة الانشغال، نهض

حارس الأمن، ونهضت سميتا، ولم يبق من المرحلة الأولى من مهمة إغاثة امرأة ضائعة شيء يذكر، ستعثر المسكينة على أكل وشرب لها ولجنيها بلا شك، ستعثر على سرير ولحاف، وسقف محتشم يعيد لها كرامة النوم، وربما لا تلتقي المغنية أبدًا بعد ذلك، بالرغم من إقامتها في بيتها. منذ تلك اللحظة، سيكون حارس الأمن مربوطًا بغرفة الخدم الخارجية، سيرتاح اليوم في بيته، وربما ذهب قليلًا إلى بيت الكونتيسة، لو شعر بأي عطش قوي، أو ثغرة في جدار التعاطف الذي يسيجه بشأن سميتا. المرحلة الثانية هي الأهم، أن يعثر على المعالج المناسب للهوس المناسب.

الفصل الثالث

الجدة وعالم آخر

- ١ -

كانت الجدة عاقبة، التي يسميها أهل حيها العاصفة، ولا يجهرون بذلك الاسم أبـدًا، مبتهجة بشدة في ذلك اليوم، فقد استطاعت لأول مرة منذ ثلاثين عامًا، أن تأكل اللحم يابسًا بلا مشاكل، وتهرس بعض العظام الصغيرة وتبتلعها، بعد أن حصلت على طقم أسنان جديد وناصع من طبيب أسنان من أهل الخير، كان معتادًا أن يمنح مثل تلك الهدايا العينية لبعض المرضى من حين لآخر. وزارها في أول الصباح فوج من طلاب كلية الطب، كانوا يطرقون أبواب البيوت في الأحياء التي يظنون أنها تفتقر للرعاية الصحية المناسبة، ويسكنها مواطنون ربما لم يروا طبيبًا قط في حياتهم، يتمرنون على قياس ضغط الدم، ومعدل السكر في البلازما، ويمكن أن يفرقوا بسهولة بين الهالات السوداء حول العين الناتجة من إرهاق، وتلك التي هي علامة على مرض داخلي خطير. تناوبوا فحصها، وأخبروها بابتسامات ومداعبات وقبلات على الرأس العجوز، بأنها امرأة شابة لا تحمل أي مرض عضال في جسدها، وذلك الانتفاخ المتكرر الذي تحس به في جانب بطنها الأيسر، مجرد رياح هضمية بلا أهمية، ناتجة من سوء فهم غير متعمد

من جانبها، لمعنى التغذية، وفي النهاية نصحوها بضرورة أن تبدو مبتسمة دائمًا، وأن تحرك ركبتيها أكثر من المعتاد، حتى يختفي عنهما التيبس نهائيًا، مبتهجة، وتحاول التفاعل مع أغنية حديثة واسعة الانتشار، ولا تستجيب الأغنية لذوقها الذي تعوَّدَ أغنيات رحلت منذ زمن بعيد، وكانت قد صبغت شعرها جيدًا، وترتدي قميصًا أحمر ضيقًا عند الخصر، استعارته من طالبة جامعية تسكن بالجوار، وفي نيتها ألا ترده إلى صاحبته أبدًا. وحين زارها حلم يقظة مباغت، أعادها إلى أيام أن كانت عروسًا، محناة اليدين والقدمين، ومجهزة للقاء ليلة العمر، لم تطرده، جعلته ينساب بها ناعمًا سلسًا حتى سرير السعادة الذي ما عاد ممتلئًا سعادة. شاهدها قسم السيد في تلك الفوضى الأخاذة، بعد أن عاد من مهمته التي أكمل جزءها الأول، ولم يستغرب، وما ترك له التعب ذهنًا صافيًا، يمتص الغرائب، ويستغرب لها، وشاهدته، وكان من المفترض أن تسأله عن غيابه، وأين فسق بليلته، ومع من كان، ولم تسأله، وبدت اللحظة في مجملها واحدة من لحظات البيت النادرة، التي لا تتكرر كثيرًا. شاهد في أحد أركان الحوش خادمة جديدة ممشطة الشعر، تبدو من إثيوبيا أو إرتيريا، تغسل الثياب على عجل، وتنشرها على حبال من البلاستيك الأخضر، مربوطة على أعمدة من الخشب في وسط الحوش، ولم يهتم بالاقتراب منها، وسؤالها عن اسمها، ويعرف يقينًا أنها ستطرد

غالبًا، قبل أن يجف الغسيل على حباله. لا توجد خادمة حتى الآن، تم اختراعها لتناسب مزاج جدته، وقد اعتاد كلما شاهد واحدة ألا يسمح لتعاطفه بأن يقترب منها، ولو فعل، لظل أسير التعاطف مع أكثر من سبعين واحدة، دخلن البيت وخرجن من دون أن يتركن فيه بصمة محددة، أو ملامح يتذكرها أحد بعد ذلك. أسهل كثيرًا أن يتذكر عابري طريق عبروا أمامه، وركابًا تعذبوا معه في حافلة، ونزلاء مروا سريعًا ببوابة فندق سواري، من أن يتذكر خادمة ربما غسلت له ثيابه ونشرتها على حبل ذات يوم. كان أخوه (المزيون) المسمى على شيخ إحدى الطرق الصوفية المعروفين بعلاج المجانين، غائبًا منذ ستة أشهر تقريبًا، يتمرن لدى الشيخ نفسه الذي يقيم في إحدى ضواحي العاصمة، تمهيدًا ليصبح درويشًا يحيي ليالي الذكر في الموالد النبوية الشريفة، وبعض الاحتفالات الرسمية التي تستوجب وجود دراويش متخصصين، جنبًا إلى جنب مع راقصي (الكمبلا)، ومغنيات (الدلوكة)، وصعاليك أغنيات الراب الشباب، حليقي الرؤوس، بوصف ذلك نوعًا من التعدد الثقافي الذي تمتاز به البلاد، أخوه مجاهد الذي ما يزال طالبًا في المرحلة الثانوية، غالبًا ما يكون في تلك الساعة خارج صفه الدراسي، وبرفقة طالبة من مدرسة قريبة من مدرسته، خارج صفها الدراسي أيضًا، وأخته السارة الملقبة سحلية، بلا أي سبب لذلك اللقب الذي اتفقت عليه الأسرة كلها،

لا تسأل عن أحد في تلك الأيام، ولا تحب أن يسأل عنها أحد، وقد أقسمت منذ شاهدت شريطًا تسجيليًا عن موسوعة «جينيس»، وما تجره من شهرة وثراء على الذين يستطيعون إدهاشها بأفعالهم، أن تعتكف في غرفتها، وتفكر بلا انقطاع، حتى تستطيع العثور على فعل مذهل يؤهلها لدخول تلك الموسوعة. وكانت كلما فكرت في شيء وابتهجت، تذكرت أنه طُرق من قبل، حتى لحس الكوع، الذي يعتبر ضربًا من المستحيلات، قام به شاب أمريكي كان مريضًا بليونة العضلات ولا يعرف هو أو أحد غيره حقيقة مرضه، والمشي على أصبع واحدة مسافة عشرة كيلومترات قامت به أسترالية في أواسط العمر منذ أكثر من ستة أعوام، وحقق الكوبي فيليب مارتنيز الذي كان أعمى منذ ولادته رقمًا قياسيًا مذهلًا، حين قاد دراجة نارية من كندا إلى أستراليا. السارة الملقبة ظلمًا بالسحلية وما عادت تتذمر من لقبها، لم تيأس، ولن تيأس أبدًا، تأكل وجبتين فقط في اليوم مكونتين من الخيار والجزر المسلوق حتى تبدو خفيفة، وتنام أربع ساعات، وتحرص على مشاهدة الشريط التسجيلي على الدوام، وتطالع كتابَ موسوعة جينيس الغالي في ترجمته العربية، الذي استعارته من المكتبة العامة، وتعيد قراءته باستمرار. ولا يستطيع أحد أن يتكهن إن كانت قد فكرت في استحمامها عشرين مرة في اليوم أم لا؟ من أجل أن تنعش أفكارها، ولو فكرت، لربما كان ذلك مدخلًا معقولًا من

مداخل الصبر، تبدأ به الزحف نحو موسوعة جينيس.

دخل قسم السيد إلى غرفته الضيقة، ولم يخطئ لمسة الخادمة الجديدة داخلها، ما كان مبعثرًا بالأمس، أعيد ترتيبه بفظاظة، ليس بالضرورة ترتيبًا متقنًا يضع كل شيء في المكان المناسب، ولكنه ترتيب وكفى، ويبدو أنها في لحظة حماسة دائمًا ما ترافق العمال حين يبدؤون عملًا جديدًا، ارتكبت جرمًا كبيرًا، حين أخرجت صورة غير محتشمة لراقصة العرب الأولى سنية رالي، من قعر الخزانة الخشبية، علقتها على الحائط، وكانت مخبأة عن قصد، ويخرجها قسم السيد من حين لآخر، يتلذذ بتلك المكانة الكبيرة التي يحتلها ذلك الجسد العربي العريق في نفسه ونفوس كل العرب. كانت أمامه فرصة ليتغدى بعد ليلة ونهار من الجوع، ولم يغتنمها برغم رائحة البصل والثوم التي كانت تعشش في المكان، أمامه ساعات من الفراغ، كان يمكن أن يسند فيها رأسه إلى وسادة وينام بعمق، ولم يفعل، الشيء الوحيد الذي كان يشغله في تلك اللحظة هو أن ينتهي من تعاطفه الجديد ليبحث عن غيره. وغدًا لا بد من أن يذهب إلى وظيفته في سواري، ليست الأيام كلها شبيهة بهذا اليوم، وليس كل زميل كريمًا مثل زميله الذي منحه الجنيهات العشرة والتفرغ التام لإتمام المهمة. على الطاولة أمامه كان يوجد كتاب اسمه «حلق بخيالك»، كتبه أحد المعلقين الرياضيين الأمريكيين، بعد أن اعتزل، وترجم

أخيرًا إلى العربية، واقتناه قسم السيد مصادفة، حين نسيه أحد النزلاء في سواري في لحظة تعجله للسفر، ولم يقبل حتى موظف الأمانات أن يتسلَّمه، واحتفظ هو به، لعل صاحبه يعود ذات يوم، ويجد تلك الثنية التي وضعها له حيث توقفت قراءته عند صفحة ثمانين، ويكمله. وقد قضى هذا الكتاب على هذه الطاولة بالذات، قرابة الخمس سنوات، لا أكمله صاحبه، ولا قرأه أحد آخر. قسم السيد محارب، لا يقرأ في العادة كتبًا ولا حتى لافتات دعائية، الجدة بالطبع لا تقرأ ولا تكتب لأن جيلها كله لا يقرأ ولا يكتب، المزيون مهتم بمستقبله في الدروشة عند سميه المزيون، ولن يحلق بخياله أبعد من ذلك. مجاهد الصغير، كان من الممكن أن يصبح قارئًا نهمًا، لولا أنه لم تصدر طبعة حديثة من كتاب رسائل الحب العصرية، بعد أن عرف المحبون سكك الهاتف المحمول، ورسائله المباشرة إلى العين بلا لف ولا دوران، إضافة إلى تغير لغة الرسائل نفسها، وما كان يلهب المشاعر في رسائل الحب العصرية، لم يعد يواكب العصر. السارة الملقبة ظلمًا سحلية، كان اهتمامها في البداية وقبل أن تنغمس في موضوع موسوعة جينيس المرهق، منصبًا على تجميع كل القصائد الوطنية التي كتبت في البلاد منذ الاستعمار الإنجليزي، وأثناء كل الحكومات التي تلته. ليس موضوع عشق لذلك النمط من الكتابة، ولكن بغرض البحث عن أخطاء لا تغتفر، ربما ارتكبها

الشعراء في حق الوطن، وهم يمدحون حكامه، أو ركاكة لفظية رافقت حماستهم، وهم يذمون الاستعمار. وبالرغم من أنها ليست باحثة متخصصة، واعتمدت على انجذابها أو نفورها الشخصي، كأداة بحث بدائية، فإنها كانت سعيدة على الدوام وهي تردد أمام إخوتها أنها اكتشفت مصائب لم يكتشفها أحد ولا سعى لاكتشافها من قبل، مثلاً أغنية فارس الملمات، التي انتشرت بشدة في سبعينيات القرن الماضي، واعتبرت آنذاك من عيون الشعر الوطني، ورقص على إيقاعها رئيس البلاد في تلك الفترة، وصرح في أكثر من مناسبة، أنها أغنيته المفضلة، لم تكن سوى هجاء صريح له من دون أن يدري.

تضع يديها على خصرها متحفزة، تردد:

ماذا يعني قول مثل:

خليت الرياح ممسوكه بي جبروت

وطلعت المدسدس جوه بطن الحوت.

هجاء والله وسخرية، لقد حرمه الشاعر حتى من الذهاب للحمام، وإطلاق الرياح الهضمية، ثم ماذا يوجد داخل بطن الحوت في العادة؟ مجرد مصارين وفضلات طعام، وقذارات.. انظروا.. ألست على حق؟.. انظروا إلى هذه:

تشتاق الشوارع للولد همَّام

مفتاح البيوت في لجة الإظلام.

من الذي تشتاق إليه الشوارع ؟ ولد متشرد بلا شك، ومن الذي يقتحم البيوت في الظلمة غير اللص؟

تتشنج أكثر، تنظر إلى ظاهر الكلام، وترفض ظلاله، تأتي بالقصائد الخالدة في نظر الشعب كله، تعريها من الخلود، ولا يجادلها أحد، ذلك أنه ـ ببساطة شديدة ـ لا أحد من إخوتها كان يملك أداة بحثية أخرى يجادل بها، بالأحرى، كان الموضوع كله خارج اهتمامات الأسرة، وبرغم ذلك فطن قسم السيد، وفطنت الأسرة كلها معه، حتى الجدة التي لا تعرف شيئًا عن الأبحاث، إلى خطورة أفكار السارة، وإنها ربما تسهم، لو انتشرت في الحي، بشكل مباشر أو غير مباشر، في وضعهم داخل مجهر السلطة، وكانوا من عامة الشعب الذي انطحن كغيره من الشعوب الأخرى، في كل الأزمان، يفورون داخل نفوسهم فقط، ويبتعدون بقدر ما استطاعوا عن تلك الدروب المؤذية. حاول قسم السيد بوصفه أخًا أكبر مرات عديدة أن يثني السارة عن أبحاثها، يشغلها في هوايات من تلك التي تشرّف المرأة، أن تخيط الفساتين على ماكينة سنجر قديمة تركتها والدته، أن تنسج قمصان الصوف بالإبرة وتتاجر بها في موسم البرد، أن تدخل المطبخ مهيأة للتفاني، لتبتكر وجباتها الخاصة، ولم يستطع. وبعد مفاوضات ومشادات كلامية، أوقف أبحاثها في فترة زمنية محددة، قدر أنها بعيدة عن الإيذاء في الوقت الحاضر، ثم لتأتي موسوعة

جينيس بعد ذلك، بكل زخمها، وتوقف أبحاثها إلى أجل مسمى أو غير مسمى، لا أحد يعرف.

أمسك بكتاب «حلّق بخيالك»، وكان نظيفًا بفعل لمسات الخادمة الجديدة، تأمله قليلًا قبل أن يتغلغل في صفحاته، ولم يخرج من صورة الغلاف التي تمثل بجعة تحلق بجناحيها في الفضاء، بأي انطباع معين. كان كتابًا فلسفيًا أو روحانيًا، هكذا تدل الصفحات التي قرأها منه بإحساس نصفه ملل، ونصفه رغبة في نسيان تلك البائسة التي وضعها في بيت المغنية، في نهاية مطاف يعتبر ناقصًا حتى الآن، ومع خطورة أن تدخل في حوار مع الخادمتين اللتين سكنت معهما، يتطور التعارف إلى ارتياح خاص، وكشف للدواخل، ويخرج الجنّي المكمم، في واحدة من الجمل الشفافة، وتعلم المغنية، ويحدث ما لا يستطيع أحد أن يتكهن به. هل كان مخطئًا حين وضعها هناك؟ ربما، لكن لم تكن لديه خيارات ليمددها أمامه ويختار أفضلها. منذ البداية ألغى موضوع بيته، وبيوت أصدقاء وجيران، لا يعرف ظروفهم، ولم يفكر قط في بيت المتعة السرية، الذي تديره الكونتيسة، باعتباره وكرًا متسخًا، لا يحق له بأي حال من الأحوال أن يضع فيه امرأة، لم تُظهِر حتى الآن، وطوال إقامتها في سواري، حدًّا أدنى من الصعلكة، يؤهلها للسكنى في داخل ذلك البيت. وقد لاحظ بنفسه كيف كانت تبدو حين يلاحقها الراحل جيانج بعينيه، كانت تكشر،

وتزرق، وتنقلب فجأة إلى منظر كئيب لعينيه، إضافة إلى أن بيت الكونتيسة في الحقيقة كان بيتها وحدها، لا تحب أن يقيم فيه غريب، وتزوره النساء الضالات بمواعيد مسبقة.

الفلسفة في كتاب «حلق بخيالك» ناتجة من حوار طويل بين المؤلف وخياله، يود أن ينام عند الظهيرة تاركًا بيته مبعثرًا، وملابسه متسخة على الغسالة، وغبارًا كثيفًا يكسو النوافذ، فيوقظه الخيال، يحوله إلى خادم نشيط لبيته، يرتدي ملابسه على عجل ليذهب لمشاهدة مباراة في كرة القدم بينما حنفيات البيت كلها تالفة، وتخر ماء، فيمنعه الخيال، يحوله إلى سباك متمرس. وبدافع من الملل، قفز إلى صفحة ثمانين، حيث توقف قارئ الكتاب الأصلي، ولعله لم يكن مللًا بقدر ما هو نوع من التحري، أن يعرف هل توقف القارئ عند صفحة مشوقة، تدفعه لشراء الكتاب مرة أخرى وإكماله، أم يكتفي بما قرأه في بهو فندق سواري، قبل أن يترك الكتاب ويرحل، إن كان قد نسيه فعلًا، أم تركه متعمدًا؟ وقد شاهد أثناء خدمته الطويلة في سواري عشرات النزلاء يتركون كتبًا غير مكتملة، وصحفًا ومجلات لم يفتحوها قط، وأحيانًا علبًا للسجائر وولاعات ويذهبون، ونشأت مرة صداقة طويلة لم تنقطع عبر السنوات بين أحد العمال ونزيل إنجليزي كان يتردد كثيرًا إلى البلاد بحكم عمله في مجال الإغاثة، وكان قد ترك علبة سجائره على الطاولة، واستعد للرحيل، ولحقه

العامل ليسلمه السجائر، ولم يكن يعرف أن الرجل كان قد أقسم أن ينسى سجائره، ولا يعود للتدخين، إلا إذا ذكره أحد بتلك العلبة.

في صفحة ثمانين، كانت ثمة فقرة عنوانها: «حتى تكون رجلًا»، قرأ قسم السيد:

«جابي كانت ترغمني على التنازلات، ترغمني على أن أتحدث كثيرًا عن زينتها المبهرجة، وشعرها الأشقر الذي تتركه هائجًا على رأسها وكتفيها، بلا لجام، وتلك الفساتين المقلمة، التي تشتريها من مواسم التنزيلات، بوصفها ماركات عالمية، ولا تعرف أنها صنعت في الهند وبنغلاديش. لا تلتفت لمزاجي المعكر، ولا تسأل هل كنت قد نمت جيدًا أم لا؟ تعرف أنني أحب جاك نيكلسون، وترغمني على حب شون كونري، وجرتني عشر مرات لمشاهدة فيلم «آلام المسيح»، وتعرف تمامًا أنني أغدو صرصورًا حين أشاهد العنف، وغدوت بالفعل صرصورًا في تلك المرات العشر، لدرجة أنها كانت تسحقني آخر الليل في الفراش. جابي كانت تكلمني حين تريد، ولا تكلمني حين أريد مهما كنت مشتاقًا إليها، قالت كثيرًا: لماذا لا تحاول أن تصنع لك مجدًا؟ ولا أعرف أي مجد تعني. في ذلك اليوم، وكنت مستلقيًا على سريري، أتأمل لمبة الإضاءة على السقف، وهي تتأرجح بفعل هواء خفيف يأتي من النافذة شبه المفتوحة، حلَّقت بخيالي فجأة، طرت به بعيدًا بعيدًا، وخرج مني رجل جديد في

تلك اللحظة، يرى جابي تلك مجرد شقراء بلا معنى وسط مجتمع يضج بالمعاني وغير المعاني. ذهبت إلى بيتها بلا موعد في ذلك الليل، أرغمتها على تضفير شعرها وربطه بشريط، وارتداء فستان غير مقلم كنت قد اشتريته لها، من أرخص محل أزياء في نيويورك على الإطلاق، أخذتها إلى فيلم من بطولة جاك نيكلسون، واحد من أضعف أفلامه، وحين خرجنا إلى الطريق بعد نهاية العرض، صفعتها على خدها بكل قوتي، وأخبرتها بفظاظة أن قصة حبنا قد انتهت. حلق بخيالك عزيزي لتكون رجلًا».

لم يجد قسم السيد وقتًا ليضحك، أو حتى يُكوِّن فكرة محددة عن تلك الفقرة التي قرأها من الكتاب، ليقرر إن كانت مطابقة لتقاليد المجتمع الرأسمالي المنفتح، الذي يعيش فيه الكاتب بالفعل؟ أم فقرة مسروقة من مجتمعات أخرى، حشرت بغرض اجتذاب أكبر عدد من القراء، ولعلها من نسج خيال المترجم شخصيًا، وقد تعوَّد المترجمون في بلادنا أن يحشروا في الكتب التي ينقلونها من لغات أخرى بعضًا من معاناتهم الخاصة، يضفرونها بالنسيج العام للكتب، حتى تبدو فقرات أصلية. لو وجد قسم السيد وقتًا لتكوين فكرة لتأكد له تمامًا أن فكرة التمرد، وإبداء الرجولة بفظاظتها، وشواربها المفتولة، واستخدامها في حق امرأة، لدرجة الصفع، هي في الواقع فكرة عربية في الصميم، لم يعرفها الغرب قط. أجهض تفكيره في

تلك اللحظة أخوه مجاهد حين اقتحم الغرفة، بلا استئذان، حاملًا هاتفه المحمول وهو يصرخ:

فضيحة.. فضيحة حقيقية.

كانت الفضيحة التي يتحدث عنها عبارة عن فيديو تناقلته الهواتف المحمولة أولًا، ثم قفز إلى وسائل الإعلام بعد ذلك، وأنتجت بسببه برامج حوارية طويلة، استضافت متحدثين من كل الأطياف داخل البلاد وخارجها، ويمكن فيما بعد أن يظهر تأثيره في القصص والروايات وقصائد الشعر، ويمكن أن يشكل نواة خَطِرة لغضب يتشكل هنا وهناك، ويمكن أيضًا ألا يكون ذا قيمة على الإطلاق. ثبَّت قسم السيد عينيه على هاتف أخيه المحمول، وابتدأ يمص الفيديو، وظهرت بوادر تعاطف جديد أنساه للحظة تعاطفه الحالي المعلق، في مهمة إغاثة امرأة ضائعة. كانت ثمة فتاة تزحف على الأرض في ساحة عامة بها جمهور وسيارات، وشرطيان بالزي الرسمي يجلدانها بالسوط. كان الجلد عشوائيًا، يسقط رأس السوط حيث يسقط، والفتاة بلا مروءة تبكي، وتحاول أن تتقي الجلد بيدين عاريتين. خُيِّل لقسم السيد لحظة أنه يعرف تلك الفتاة، أنه التقاها في مكان ما، لا تشبه بنات الكونتيسة اللائي يمتلئن مجونًا، وينفخن العلكة في شكل بالونات، ولا يجرؤ أحد على جلدهن في مكان عام، واكتشف فجأة أنها أي فتاة أخرى من ملايين الفتيات اللائي

يوجدن في البلاد. انتابته حالة التعاطف المر مرة أخرى، وأحس بها في حامض المعدة وهياج دقات القلب، وامتلك لأول مرة في حياته تعاطفين مهمين في آن معًا، الفرق هو أنه لن تكون أبدًا ثمة مهمة اسمها إنقاذ سمعة امرأة جُلدت على مرأى من العالم كله.

- ما جريمتها؟

سأل مجاهد وهو يمنعه من إعادة تشغيل الشريط بعد أن انتهى.

- لا أعرف.. لا أحد يعرف.

وبضغط من التعاطف الجديد الذي سيحاول قدر الإمكان أن يدفنه في أسرع وقت، ولا يسعى للانجذاب له، اغتاظ من البيت فجأة، وقرر أن يفر إلى الطريق. لا يحس بالتعب، لا يحس بالجوع، ولكن بإحساسات أخرى متضاربة.

أوقفته أخته السارة في منتصف حوش البيت، وكان قد انتهى من حديث قصير مع الجدة عاقبة، التي كانت ما تزال بقميص الطالبة الأحمر، تجلس على مقعد منخفض في الحوش، وهي تحاول أن تتفاعل مع عدد من الأغنيات الشبابية، والأغنيات تفلت منها، عرف قصتها، وشاهد طقم أسنانها الجديد، وتمنى لها حياة مديدة حافلة بالنشاط. ولم ينسَ أن يسألها بحذر هل كان يمكنه أن يتعرف إلى الخادمة الجديدة أم لا؟ وكانت الأخيرة ما تزال موجودة في البيت، وقد انتقلت إلى مرحلة جديدة من الخدمة نادرًا ما تنتقل إليها

خادمة توظفها الجدة، كانت قد جمعت الملابس من حبال الغسيل، وابتدأت بكيها.

صرخت السارة:

– تعاطف معي، لماذا تتعاطف مع الدنيا كلها، ولا تتعاطف معي؟

بالطبع كان يتعاطف معها منذ ولدت من دون أن يحس بها دخيلة على نوبات التعاطف المرضية التي تَدْهمه تجاه الغرباء، يراها وقد أضحت نحيلة جدًّا، ويابسة العود، ولها شعر مبتل وملفوف بمنشفة وردية باستمرار. يتعاطف معها بشدة، يشتري لها لب القرع الذي تفضله للتسلية، وشامبو غَسْل الأفكار غير المجدية، حين يتوافر لديه المال، ويأمر المزيون حين يأتي أحيانًا في إجازة قصيرة من مقر شيخه، أن يلتزم بقوانين الإجازة، يقضيها مسترخيًا في غرفته أو على مقعد أمام باب البيت، بلا ضجيج ولا حمل لمبخر الدراويش، كي يطوف به في المنزل، حتى لا يشتت أفكارها، وحين تعثر على فكرة ما، وتخرج من غرفتها لتخبر عنها أحدًا، وغالبًا ما يحدث ذلك في الليل، والناس غارقون في النوم، كان يستيقظ لنقرها الخفيف على الباب، ويهلل بشدة، حتى لو كانت الفكرة تتعلق بأكل خروف وحدها، أو شرب برميل من الماء، أو القيام بانقلاب عسكري في أول الصباح، وكلها أفكار كلاسيكية، نفذها العشرات من قبل. سيتعاطف مجددًا، ولكن ماذا لديها؟

كانت قد وقفت قبالته، يداها دائمًا منغرستان في خصرها، ولأول مرة لاحظ أنها بلا جاذبية نسائية، لا وجه مليح ولا صدر ناهد ولا عطر نفاذ يغطي على ملاحظتيه السابقتين، وفهم لماذا لم يطرق بابها رجل حتى الآن، وقد تجاوزت الثلاثين، وتخرجت في الجامعة، وعملت سكرتيرة لعميد إحدى الكليات النظرية، وطردت نفسها بنفسها، حين طالبها العميد بالكف عن ارتداء وجه العوانس المكفهر، والعمل على إشاعة البهجة في نفوس الذين يطرقون باب مكتبه.

- أريدك أن تمتحنني في الصبر. أريد أن أدخل الموسوعة من باب الصبر.

- كيف؟

يسألها، ويتوجس، يخاف أن تسجنه في امتحانها، ويريد الآن بالذات أن يتنفس هواء آخر، أن ينتهي من مهمته، ألا يجعل موضوع الفتاة التي جُلدت موضوعًا رئيسًا.

- أريدك أن تجلس أمامي وتستفزني حتى أبكي، قل أي شيء يخطر في بالك، أي شيء، أريد أن أعرف نقاط ضعفي، ومتى تنفلت أعصابي، ومتى لا تنفلت، وإن كنت سأقتل أحدًا ذات يوم أم لا؟

- مجنونة هذه الفتاة.. مجنونة بلا شك.

هكذا فكر قسم السيد، وهو ينصاع لرجائها صاغرًا.

- ٢ -

الكونتيسة، المفترض حتى هذه اللحظة، أنها صاحبة بيت المتعة غير الرسمي المختبئ في حي الورد، بين بيوت عديدة متشابهة في المعمار واللون، لم يكن اسمها عواطف، ولا ميمونة، ولا الرمانة، ولا جوهرة، ولا أي اسم آخر من تلك الأسماء المعروفة التي يمكن أن تسمى بها المرأة. امرأة في منتصف العمر، ذات حضور وجاذبية، وتفهم في قواعد السلوك أكثر من رؤساء البعثات الدبلوماسية، ترسم أحيانًا بألوان الماء والزيت، وتبدو رسوماتها متناغمة بالرغم من عدم انتمائها لأي مدرسة من مدارس الفن المعروفة، وتتقن تصفيف الشعر، وعجن الحناء وزخرفتها على أيدي وسيقان النساء، ولا يستطيع أي كائن أن يقسم بوجود نشاط مشبوه وراء امرأة تغطي رأسها، وتتبرع لمرضى السل والجذام، والفشل الكلوي، وتقيم من حين لآخر معارض فنية متقنة تضم لوحاتها ولوحات رسامين آخرين تنتقيهم بعناية، يذهب ريعها لعمل الخير. لقد أفلحت في تغطية نشاطها السري جيدًا، غطته أمنيًّا واجتماعيًّا، لدرجة أن حملات التفتيش عن المخازي، التي تنظم من حين لآخر، وتنبش العاصمة بحثًا عن المنكر لتمزيقه، لم تقترب منها قط، ذلك ببساطة شديدة،

أن عددًا من منظمي تلك الحملات كانوا من رواد ليلها المستتر. كانت فلسفتها في الإبقاء على اسمها الحقيقي غائبًا في المجتمع، جزءًا من فلسفة الغموض التي تحبها، ما تسميه شحذ الأذهان لتخمين اسمها، والذي يدفع معارفها دائمًا للهاث، ودلق أسماء كثيرة أمامها كلها خاطئة، ولو كانت ثمة جدية حقيقية لمعرفة اسمها من قبل أولئك المعارف، لتوصلوا إليه ببساطة شديدة جدًّا. فقطعًا لن يكون اسمها الكونتيسة في بطاقة المواطنة، وجواز السفر، ورخصة القيادة الخاصة بها، وتقود عربة من ماركة نيسان تيدا، وتسافر من حين لآخر. وبعيدًا عن كل ذلك، سيجزم عدد غير محدود من الناس أنهم يعرفون اسمها، ويجارونها في اصطناع الغموض نوعًا من التسلية. كان اسمها الأصلي في الواقع، (هيلان نقوشا)، وتغير فيما بعد إلى (تيجان مهاجر)، جاءت صغيرة من إثيوبيا برفقة قبطان إحدى السفن التجارية في سبعينيات القرن الماضي، وطَّنها في البلاد وهاجر، لتشق طريقها بعد ذلك، وكان تخبطًا وعرًا، بدأته فتاة ليل وانتهت سيدة مجتمع، وأيضًا صاحبة بيت مستتر للخطيئة.

كان قسم السيد قد تعرف إلى الكونتيسة منذ ستة أعوام تقريبًا، وكان يسمع باسمها يتردد أحيانًا أمامه في مناسبات عديدة من دون أن يسعى ليعرف المزيد، تعرف إليها حين قررت إدارةُ فندق سواري أن تقيم معرضًا فنيًا في إحدى الصالات الواسعة وغير المستقلة تجاريًا

من قبل، وجاءت الكونتيسة بلوحاتها لتشارك أسوة بآخرين. عبرت ببوابته عشرات المرات من دون أن تمنحه خامة تعاطف، لا حيَّته تمامًا ولا لم تُحيِّه تمامًا، ولا طلبت منه عدم تفتيش حقيبتها الجلدية التي تحمل اسم (فرساتشي)، وتلك اللوحات المغطاة بالبلاستيك في عدد من علب الكرتون الكبيرة، التي يحملها عمال يرافقونها. وكان قد تعمد نبش العلب الكرتونية بحماسة غير أمنية، وبعثرة محتوياتها، آملًا أن تكون مدخل حوار بينه وبين المرأة. لم تفته ملامحها الإثيوبية التي لن تفوت أعمى في بلاد يستخدمها الإثيوبيون منذ القدم وطنًا بديلًا، ولكن فاتته بالقطع تلك الأظفار الطويلة المطلية بمانيكير أزرق، لأن ثمة قفازًا لليدين يغطيها، وذلك الحلق الذهبي المدلى من الأذنين، لأن غطاء الرأس المتداخل الألوان قد شمله. في البداية ظنها موظفة عادية تتبع تعليمات محددة كُلِّفت بها، ثم ما لبث أن طور ظنه من أجل أن يشعر بالأسى تجاهها، اعتبرها فتاة ليل سابقة فقدت بريقها، وانشغلت بالفن لتستعيد شيئًا من البريق، وكان محقًا بالفعل، ولأول مرة يصبح ظنه مقتربًا من الحقيقة لو حذف فقط «تستعيد شيئًا من البريق»، لأن الكونتيسة لم تكتسب بريقًا حقيقيًا إلا بعد أن ذهب عنها غبار الليل المعتم. أخبره أحد موظفي الاستقبال بحقيقة المرأة حين قصده للسؤال، الرسامة فاعلة الخير، مصففة الشعر، وعاجنة حناء النساء المزخرفة، وكان لا بد

من المبادرة في تلك الحالة، وتحيتها، والانخراط مع العمال في حمل اللوحات وتعليقها على الحوائط، ثم الاقتراب أكثر، وزيارتها أحيانًا في بيتها في حي الورد، وتأدية خدمات جليلة، تمامًا كتلك التي يؤديها للمغنية سنابل، أقلها إهداؤُها ببغاء فصيح اللسان، غنمه من سائح أوروبي، وما كان بحاجة لخدماته، أو بالأحرى لا يتناسب مع طبيعة الحياة في بيته. الاقتراب لحد الذوبان في الثقة، والانخراط أحيانًا في اللذة السرية التي ما كان لامرأة بحجم الكونتيسة أن توفرها لعامل أمن بسيط في فندق لولا أنه قد انتهك ثياب التكلفة بينها وبينه بإصرار، كل ذلك مزّقه تمامًا.

امتحان الصبر الذي أرادت السارة الملقبة سحلية أن تخضع له، لم يكن هينًا، واضطر قسم السيد أن ينحت ذهنه بلا رحمة، بحثًا عن مفردات استفزاز خارقة، يهيج بها فتاة لُقبت سحلية وما استفزها ذلك، وقلبت مواجع القصائد الوطنية في كل العصور من دون أن يطرف لها جفن، والآن تصارع الهوس في موسوعة جينيس، وتنحف باستمرار، وتستحم عشرات المرات في اليوم، ولا تستغرب لحالتها. ما الذي سيُفقدها صبرها ويفكه من أسرها؟ وقد اختمرت في رأسه فكرة زيارة الكونتيسة قليلًا، لا ليغرق في أي لذة، ولكنْ فقط لشُرب فنجان قهوة لديها، وسماع أخبار المجتمع البعيد من امرأة ليس لديها بعيد في هذه الدنيا. كل شيء بين يديها وتحت

قدميها، ووجد عندها في أحد الأيام مراسلًا صحفيًّا لجريدة أجنبية، يحاورها في الفن والسياسة، وتبدي إعجابها بلوحات أدولف هتلر، وأنه ما كان ليصبح نازيًّا مستهترًا هكذا ومدمرًا للشعوب لو قيده أحد إلى مقعد، وسط الفراشي والألوان، والقماش وأمره أن يرسم فقط. وتصف الصراع الفلسطيني الإسرائيلي بأنه صراع نخب محتالة تبحث عن الجاه، أكثر من كونه صراع وجود حقيقي. وحين سألها هل كانت راضية عن نفسها أم لا؟ قالت: أبدًا.. الذي يرضى عن نفسه يظل واقفًا طوال عمره في نقطة الرضا، بينما يصعد على أكتافه غير الراضين، ويحققون مطامحهم كلها. ذلك اليوم اقتنع قسم السيد تمامًا، وهو في أشد حالات الأسف، بأن تلك المرأة التي لا يعرف اسمها، ولم يسع إلى معرفته أسوة بكل الذين دخلوا دهاليزها وخرجوا، أو لم يخرجوا، تصلح أن تكون مُنظِّرًا جادًّا للشعوب التي تفتقر إلى التنظير الجاد، ويسيطر على فكرها حفنة من البدائيين، ربما نجحوا لو أُرسلوا إلى المشاريع الزراعية في الشمال والوسط، وسلموا فلاحة الأرض، أو بعثروا في الصحارى الشاسعة لرعي الإبل.

أي وصف أو سباب للسارة لن يفقدها صبرها، لا بأس سيجرب اللقب القديم بالرغم من عدم جدواه:

- أنت سحلية.

- عادي.. منذ ولدت وأنا سحلية. هات شيئًا جديدًا.

تضحك

- أنت كومة قمامة.

- عادي.. كل البشر أكوام قمامة في النهاية، حتى الزعماء منهم.

تضحك بشدة، تنكفئ على وجهها من الضحك.

أنتِ .. أنتِ.. عدَّد لها أوصاف التفاهة كلها، الموجودة في ذهنه سلفًا، والتي استدعاها إلى الذهن، وتضحك في كل مرة، وأخيرًا ولشدة رغبته في الفرار، مسَّها في مكان لا تحب امرأة فوق الثلاثين أو تحتها، أو في أي عمر، أن تُمس فيه أبدًا:

- أنتِ رجل مثلي تمامًا ولست امرأة، ولو كنت امرأة لتزوجت.

هنا سقط امتحان الصبر عند السارة، السحلية. بكت، ودقت الأرض بقدميها، وانطلقت إلى غرفتها في غاية الإحباط، لقد نجح في فك أسره، لكنه ابتأس بإحباطها.

كانت الكونتيسة موجودة في بيتها، مغطاة الرأس بغطاء بني سميك، لا يسمح لمجرد شعرة من رأسها بأن تطل. تجلس على مقعد رقيق من البوص في ركنها الذي حولته إلى مرسم داخل الصالة الواسعة. أمامها على الطاولة فنجان قهوة من الخزف الصيني، يتصاعد منه البخار، ولوحة غير مكتملة على حامل أسود اللون، لا بد أنها كانت تعمل عليها عند قدومه. استقبلته بحفاوة، على عكس المغنية سنابل حين جر إلى بيتها امرأة ضائعة، وفكر أنها ربما كانت

ستبدو كسنابل، لو جاء بسميتا إلى بيتها. أحضرت له فنجان قهوة صنعته بنفسها، ودعته إلى تأمل ما أنجزته في اللوحة وإبداء الرأي. تُعامله كمثقف أو صاحب دراية، وتعرف أنه موظف أمني في بوابة بلا شهادة جامعية، ولا وضع مستقر، ولا حاضر ولا مستقبل، وفكرت كثيرًا أن تشتري له إقامة في إحدى دول الخليج العربي، من سماسرة كانوا يعرضونها عليها، وخافت أن تجرحه، ولا تدري أن قسم السيد برغم رقته وعاطفته الشديدة تجاه الأشياء والناس، ومع أنه يبكي في أي لحظة وفي موقف لا يستدعي البكاء إطلاقًا، لا يختلف في مسألة الإقامات تلك كثيرًا عن شعب البلاد كله، الذي يحب إقامات الخليج لدرجة الجنون، ولا تفرق مع أكثر الناس تكبرًا وحملًا للشهادات أن يحصل على إقامة راعٍ في الصحراء، في أي بلد خليجي. ولو كان يدري ما جال في خاطرها لانتزعه من الخاطر انتزاعًا. الآن يملك خبرة حراس البوابات برغم انتقادات رئيسه، وبتلك الشهادات التي سيحصل عليها، لن تكون ثمة صعوبة أن يعمل هناك، وما زال يتذكر زميله الخير، الذي استقال من سواري، وسافر منذ سبع سنوات إلى جدة في السعودية، وعاد في إحدى إجازاته شخصًا آخر، لدرجة أنه لم يعرفه حين قدم للسلام على زملائه، لم يكن يشبه حراس البوابات قط، وبدا لقسم السيد وهو يقترب منه مستثمرًا محتملًا جاء بما ادخره من أجل مشروع، أو على

أقل تقدير، واحدًا من أهل البلاد المنعمين الذين لا يتلفهم الحر، ولا يتغبرون بغبار البلاد الهائج في أي وقت.

كان في اللوحة نصف وجه ونصف جسد، وفراغ عريض يبدو أن الكونتيسة لم تقرر ملأه بعد. تأمل نصف الوجه وكان لامرأة، ونصف الجسد وكان لحيوان بذيل طويل. لم يفهم المغزى، ولن يفهم على الأرجح، لأن اللوحة في مجملها حتى لو اكتملت، لن تسعف أحدًا على فهمها. لم يرد أن يسألها، حتى لا يبدو عند سوء ظنها، وتمتم بالعبارات التقليدية التي يمكن أن يتمتم بها حتى الموتى لو أجبروا على إبداء رأي في لوحة من لوحات الفن الحديث:

– جميل.. جميل جدًّا يا كونتيسة.

كانت قد رشفت ما تبقى في فنجان قهوتها على مهل، حركت رواسب القهوة، وتأملت ما ارتسم على قعر الكوب وحافاته، ابتسمت كأنها قرأت فنجانها حقيقة، ووجدت ما سرَّها:

– جئتَ من أجلي أم من أجل الأوساخ؟.. كن صريحًا.

كانت تسأله بجدية بيَّنتها ملامح الوجه القاسي في تلك اللحظة، تسمي نشاطها السري أوساخًا، كأنها تسخر من نفسها، كأنها في طرف بعيد عن نفسها.

– من أجلك طبعًا.. أردت أن أشرب قهوة معك وأستشيرك في أمر. ليس لي مزاج آخر.

– حتى لو كان لديك مزاج آخر، فلن يكون عندي لا اليوم ولا في أي يوم آخر. لقد ألغيت النشاط تمامًا، وأتفرغ الآن للرسم، وتصفيف الشعر، وفنون الحناء. لست مجنونة ولكن هذه هي الحقيقة. أنا الآن أتطهر، هل تعرف معنى التطهر؟

لم يكن حتى تلك اللحظة يعرف معنى التطهر، والذي في مثل حالته، ويملك مرضًا مثل مرضه، سيسعى دومًا للادعاء بأنه لا يملك أخطاء تستلزم التطهر. وربما لو زالت عنه أعراض مرض التعاطف كليًّا، لفكر في أخطائه جيدًا، وأراد أن يتطهر. في الشهر الماضي عرف أنها قد بلغت الخمسين، وشاهدها وسط ضيوفها الذين احتفلوا بها وأغرقوها بالهدايا، مختلفة نوعًا ما، لم تقل شيئًا كثيرًا، أكثر من الشكر لكل من حاول إسعادها، أو جاملها، وتثاءبت مرات عديدة، ويجزم بأنه شاهدها غافية ويد أحد الضيوف معلقة في مصافحة معها لم تتم. فكر أنها قد تكون مريضة أو مرهقة، وكالعادة أفرد لها حيزًا لا بأس به من التعاطف، والآن تخبره بأنها تقاعدت ولا يستطيع التصديق.

– حقيقة يا كونتيسة؟

– حتى اسم الكونتيسة ما عاد يعجبني، أحسُّ بدعارته الآن فقط. يجب العودة إلى اسمي القديم، اسمي الوطني، هل تريد معرفة اسمي قبل أن أعلنه؟

لم يجب، تركها تحدق على راحتها نحو ثريا في السقف بدت قديمة وتضخ ضوءًا باهتًا، ثم مدت يدها، والتقطت فرشاة رقيقة غمستها في اللون، واتجهت بها نحو الفراغ الذي يحتل نصف اللوحة. كان قد شرب نصف قهوته، وبقي نصف آخر، بارد وممتلئ بالرواسب.

- الآن اسمح لي أن أكمل لوحتي. من فضلك.

خرج قسم السيد من بيتها يتخبط في قناعاته وعدم قناعاته، كانت في مزاج لا يمكن تفسيره، تلك الأمزجة النسائية التي سمع كثيرًا عن تحولها من النقيض إلى النقيض بسرعة لو قيست بمقاييس الفيزياء لبدت أسرع من سرعة صاروخ منطلق للفضاء، فكَّر أن امرأة بمزاج منحرف يمكن أن تطيح عرشَ سلطان متجبر، والمسافة بين حفاوتها عند استقباله وقتامتها عند طرده، لم تكن كبيرة. كان سيحكي لها قصة سميتا الغانيَّة، ويسألها الرأي، وربما يطلب تبرعًا سخيًّا من أجل علاجها وإسكانها في مكان لائق، كان سيناقشها في أمر شريط الفيديو الذي أدمى قلبه، وحوَّله إلى متعاطف عاجز، وكان إذا مكث حتى قرابة منتصف الليل واندمج في جو بيتها، سيبدو تافهًا جدًّا، ويطلب منها استدعاء واحدة من فتياتها النظيفات اللائي لا يحضرن إلا في ساعة الاستدعاء فقط، برغم ما قالته عن إلغاء النشاط. ماذا جرى للكونتيسة؟ وما الاسم الذي ستظهر به غدًا إذا كانت صادقة؟ على أي حال، لم تكن مشكلة كبيرة

تستحق التوقف عندها كثيرًا، أو رشقها بالتعاطف في الوقت الحالي ولديه مشكلة حقيقية ما زالت معلقة. فلتوقف نشاطها إذا شاءت، وما أكثر البيوت التي تقدم مثل تلك الخدمات، وما أكثر العبث في الشوارع والحدائق، وحتى في معاهد التعليم. كان قد ركب باصًا شبه خال، متوجهًا إلى بيته، يريد أن يأكل وينام، ويستيقظ باكرًا ليذهب إلى عمله، ومن هناك وفي الأوقات التي تبدو فيها البوابة خالية من الزوار، يمكن أن يدير حوارًا مطولًا مع خياله، كما فعل مؤلف كتاب «حلق بخيالك»، لعل أمورًا كثيرة تتغير، ولم يكن يدري أن ثمة أمورًا قد تغيرت بالفعل، أمورًا تخصه وأمورًا لا تخصه على الإطلاق. ثورات وانتفاضات اندلعت بالفعل في أماكن كثيرة من العالم، بورصات انهارت، وعملات تغير وضعها، وتيجان مهاجر التي عُرفت بالكونتيسة أكثرَ من ثلاثين عامًا قد سقطت تغطيتها بالكامل، وتفرغ لها عدد من محاربي الوسخ الجدد، وكانت ستُكنس من المجتمع في أي وقت، وربما تموت في السجن، وجاء تطهُّرها عن رعب لا عن قناعة. وبعد يومين على الأكثر، سيقرأ خبرًا عريضًا في الصحف عن انتحار رسامة معروفة لأسباب غير معروفة، وأنها تركت في مرسمها لوحة تمثل امرأة بنصف وجه، وجسد حيوان، ورقبة معلقة على حبل.

- ٣ -

كانت مفاجأة كبيرة لقسم السيد وهو يعبر الشوارع في الصباح الباكر، خالي الذهن تقريبًا، ومتجهًا إلى عمله في فندق سواري، أن شاهد الغانيَّة سميتا باكار، مستندة إلى حقيبتها القماشية، وجالسة على دكة المطرودين، أمام مدخل الكنيسة المهجورة، وبجوارها أكثر من عشرة أشخاص من بلاد متعددة، وقد استندوا إلى حقائبهم أيضًا، وأيقن أن ثمة مشكلة قد حدثت في بيت المغنية طُردت على إثرها المرأة من جديد، وتمنى صادقًا أن تكون بعيدة تمامًا عن مسألة الجنّي، حتى لا يصغر في نظر المغنية، وتنسى خدماته الجليلة كلها، وتتفرغ لعضه. أحس بالاضطراب حقيقة، دعك عينيه، وألقاهما على دكة الحزن مرة أخرى، ويأمل أن يكون مخطئًا، وأن تكون المرأة التي شاهدها مجرد أفريقية أخرى طردت من فندق مجاور، وتفكر تفكيرًا بعيدًا تمامًا عن الشياطين الذين يسكنون أجساد البشر، لكن لا مجال للاضطراب، ولا مجال لتضليل الرؤية الواضحة التي نتجت عن إزالة غباش العين: إنها سميتا الغانيَّة نفسها.

كان غير منتبه لخشونته الطارئة وهو يجرها بعيدًا عن دكة الحزن، ويقطع حديثًا بدا مرحًا بينها وبين شاب أبيض، مضفر الشعر،

ويعقده بشريط أحمر، لا بد أنه إغريقي، كان يشبه إلى حد كبير، قرياقوس متاري، الإغريقي الذي كان لاعب كرة محترفًا في فريق البلاد الوطني، بالرغم من أنه لا يشبه الوطن، ولا يشبهه الوطن.

الذي حدث أن الغانيَّة بدأت بالفعل أولى خطوات الإيواء المؤقت في بيت المغنية سنابل، تعرفت إلى الغرفة التي ستسكنها، وصنفتها من فئة «لا بأس» المناسبة لواحدة في مثل موقفها، حيث يوجد سرير مريح، وطاولة للأكل والكتابة، وتلفزيون قياس أربع عشرة بوصة، تظهر فيه الدراما الهمجية، ونشرات الأخبار وبرامج الطبخ، وقنوات فك السحر بوضوح، وكانت تلك القنوات الأخيرة هي ما لفت انتباهها، وأسهم في طردها بعد ذلك. كان الحمام الملاصق للغرفة، من فئة «سيِّئ»، لكنه سمح لها بأن تستحم، تستخدم صابونًا ذا رغوة، تغسل به جسدها المتسخ بفعل عربة القطار المهجورة جيدًا، برغم ما أثاره من هرش في أماكنها الحساسة. حين جاءت خادمة الطبخ بالأكل، أكلت مضاعفًا، لقمة لها، لقمة للجني، هكذا، وحين تجشأت شبعًا، تجشأ الجنّي أيضًا، وارتعبت الخادمة قليلًا، لكنها ما لبثت أن سيطرت على الرعب، كانت من بنات البلد اللائي لم يغادرنه قط، ولا تعرف عن الأفارقة أكثر من كونهم أفارقة، ولم تسمع أفريقيًّا يتجشأ من قبل ولم تسمع بالإنترنت، ولا تملك بريدًا إلكترونيًّا تصب فيه رسائل من غينيا وغانا وأوغندا

وكينيا وليبريا، وساحل العاج، والكاميرون، والكونغو برازافيل، يخبرها فيها مرسلوها بأنها ربحت أربعين مليون دولار بلا جهد، وعليها إرسال مئتي دولار حتى يستخلصوا لها أموالها، ثم يطير المرسلون وتطير المئتا دولار بعد ذلك. وحتى حين مات أحد أجدادها في دولة أفريقية ذهب إليها باحثًا عن علاج للشيخوخة، لم تعرف ذلك، لأنها لم تكن قد ولدت بعد.. باختصار شديد، عادت الخادمة بنت البلد إلى ودها مع الضيفة، وسعت ألا يبارحها ذلك الود، وظلت طوال اليوم رائحة وغادية، غادية ورائحة، وجلبت في غدوها ورواحها طبقًا من التمر الخشن، وكوبًا من عصير التبلدي، وشايًا بنعناع، وبعض المشهيات الطبيعية مثل البصل المحروق، ودهن ذيل الخروف المحمص. لم تسألها سميتا عن المغنية، ولا هي ذكرتها بخير أو شر، وفي أول المساء حين أرادت خادمة الطبخ أن تسترخي بعد يوم شاق، وتشاهد حلقة جديدة من المسلسل التركي «رسلان وأرزو»، نبهتها سميتا إلى أن القناة لن تتغير على الإطلاق، لأنها الآن بالذات تتابع ما يقوله السيد (بخاروت علي)، عالم الأرواح في القناة المفتوحة أمامها، عن كيفية إخراج الشياطين من أجساد البشر، وهي تملك واحدًا منهم في جسدها، وتريد إخراجه فورًا. في البداية ظنتها الخادمة تمزح، وحاولت تغيير القناة بالفعل، واستوثقت من عدم مزاحها حين شدتها الأفريقية من شعرها،

ألقتها على الأرض، كممت فمها الذي أراد أن يصرخ، وظلت تتابع السيد بخاروت حتى انتهى. حين أفلتت الخادمة أخيرًا، كان وجهها مزرقًّا، وصدرها لاهثًا، ودقات قلبها قد اقتربت من معدل خطر، فرت إلى داخل البيت، وجاءت بالمغنية التي كانت مشغولة للغاية، فقد أفرغت حقيبتها من الملابس للمرة العشرين، وتعيد ترتيبها من جديد، بينما نصف العلم المتبقي على رأسها لم يوضع بعد، وكانت قد تلقت مكالمة خاصة من حاكم المقاطعة، يخبرها عن تغيير طفيف طرأ على جدول زيارتها، وأن الزيارة ستبدأ غدًا مساءً بدلًا من الأسبوع القادم، وما كان ثمة وقت تضيعه في فض شجار عادي بين خادمة وخادمة أخرى، ناهيك أن يحدث بين خادمة وضيفة مسكونة بجني. وتراث قبيلة (البجا) التي تنحدر منها، يحذر من شيئين: لون الدم والجن. وقفت أمام باب الغرفة، لا تجرؤ على الاقتراب أكثر، تريد أن تفهم وتخاف أن تفهم، ترى امرأة عادية، في جلسة عادية، ويخيل لها أن المرأة غير عادية، والجلسة لا تشبه جلسات البشر، تلك اللحظة كان سائق عربة الأفراح قد أتى، وتمت جرجرة الأفريقية وحقيبتها إلى خارج البيت، لكن السائق كان كريمًا في ما يبدو، ولا علاقة له بالخوف أو ما شابه ذلك، لأنه أركبها بجانبه، وكان من المفترض في مثل تلك الحالة أن يُلقيها في الخلف. أكثر من ذلك لمس يدها، أكثر من ذلك تحرش بساقيها وغاص بينهما بيده، بحثًا عن السر، واضطر

إلى أن يلقيها في وسط العاصمة، لأنها في لحظة اشمئزاز عنيفة وبما تمتلكه من أظفار طويلة ويابسة، كادت تمزق له منابع الشهوة كلها.

الذي حدث أن سميتا كانت تعرف وسط العاصمة جيدًا، ولطالما تجولت فيه وحدها أيام إقامتها في سواري آملة أن ينعشها المشي، وتتذكر المعالج الذي جاءت من أجله، ولن تتوه عن دكة المطرودين، لأنها في نطاق معرفتها، ولأن أولئك الذين بلا مأوى وغرباء في بلاد غريبة، يملكون حواسَّ شهمة، تقودهم إلى حيث يريدون بلا مشقة. كانت الدكة في الليل عامرة، واستمر عمارها حتى الصباح، هناك كثيرون كانوا يحكون عن ظروفهم، رجال جاؤوا بغرض التسلية من دون تقدير للعواقب، رجال حلموا بناءً على معلومات خاطئة بأن يصبحوا عباقرة وسط شعب سيِّئ التغذية والتعليم، نساء جئن لاكتشاف الآثار في مناطق الشمال، ولم يدلهن أحد على أثر ذي جدوى. وكان اليوناني صاحب الشعر المضفر بالذات الذي فضلت الجلوس بجانبه لشعورها بأنه مستمع جيد، وقدرت ذلك من سماعة الأذنين التي يربطها إلى ردايو صغير، ويضعها على أذنيه، قد جاء إلى البلاد سعيًا وراء عشيق، التقاه في سالونيك في الصيف الماضي، عاشا أيامًا اعتبرها الإغريقي أعذب أيام حياته، وافترقا ليلتقيا هنا، لكن حين جاء وقصد عنوانه الذي زوده به، وجده ملجأ للعجزة، لم يعثر فيه على أحد يستطيع الوقوف

على قدميه من دون مساعدة. أنا من الجنس الثالث.. همس في أذن سميتا باللغة الفرنسية، بعد أن انتزع سماعة الراديو عن أذنيه، فلم تعر الأمر التفاتًا كثيرًا، من الثالث أو الرابع أو العاشر، هذا شأنه، ما يهمها هو كيف تنهي مأساتها.

كلمها قسم السيد كلمتين فقط، وطلب منها أن تنتظره مجددًا على الدكة حتى يعود. ما حدث في بيت المغنية أربكه بشدة، تخيلها الآن قد أحرقت أصداء خدماته التي قدمها لها من قبل كلها، وتعض على هذا الخطأ الوحيد، وتبحث عنه بمساعدة سائقها، وأعضاء فرقة أخوال فاطمة، لتؤذيه، وكان من حسن الحظ أنه لا يملك هاتفًا جوالًا حتى يسمع صوتها ساخطًا وملعلعًا، وفي النهاية قد تأتي إلى سواري، أو تذهب إلى بيته الذي تعرفه جيدًا، وكانت من قبل من سكان الحي نفسه، وساعتئذٍ سيكون لكل حادث حديث. كان مخطئًا جدًّا، لأن المغنية في الأغلب لم تتذكره حتى، كانت في تمام زينتها، وحقيبتها المرتبة للمرة العشرين، في تلك اللحظة على مقعد من مقاعد الدرجة الأولى داخل طائرة من طراز إيرباص، وفي هذه اللحظة بالذات، كانت تتحدث مع المضفية الجوية، طالبة فطورًا من البيض الأومليت، وخبزًا أسمر يساعد على الحفاظ على الرشاقة.

في البيت كانت ثمة تغيرات ما تحدث، ولم يتسنَّ لقسم السيد أن يشهدها، لأنه كان في تلك اللحظة يوسع الخطى باتجاه مكتب رئيسه،

متجاهلًا زميله الذي كان جالسًا في الخدمة منذ يومين إرضاءً له. فقد سقطت عدة أسنان مهمة من طقم الأسنان الهدية، الذي تُزين به الجدة عاقبة فمها، بعد يومين فقط من استخدامه، وتخلخلت البقية بها لا يدع مجالًا للشك أنها في طريقها للسقوط آجلًا أم عاجلًا. الجدة نفسها، وبعد تفكير طويل في مسألة الفستان الشبابي الأحمر، وعودة الانتفاخ أشد ضراوة في الجانب الأيسر من بطنها، ومجيء إحدى الجارات لتخبرها أن من زاروها في ذلك الصباح، وقرروا أنها فتاة شابة لم يكونوا أطباء حقيقيين، وإنما كانوا طلابًا متمرنين لا يملكون صلاحية تخفيف العمر عن عجوز مثلها. جفت مرة أخرى، مزقت الفستان في غرفتها بحقد، ناسية أنه مستعار ولا تملكه، عادت إلى ثيابها الجنائزية القاتمة، وأغنيات حقيبة الفن التي تفقهها جدًّا، ولا تصارعها صراع الأغنيات الجديدة، وتمنت في قرارة نفسها أن يحوم في تلك الليلة لص حول منزلها، حتى تطارده وتخصيه بعكازتها. بحثت عن مجاهد ولم تجده، وتذكرت أنه في المدرسة، وكان في الواقع بصحبة طالبة مندلقة العواطف، يتنزهان على النيل، وذهبت إلى السارة سحلية في غرفتها، هددتها بالطرد من المنزل إن لم تبحث عن عمل جديد، وعريس مناسب، وقبل ذلك، أن تصلح من جسدها حتى يصير جسد أنثى حقيقيًّا، وفي قلب ذلك الفوران، لم تنس الخادمة الجديدة، حيث أمسكتها من شعرها، جرتها بطول الحوش، وألقتها في الطريق.

كان المزيون قد عاد في وقت متأخر من الصباح، ربما بعد ساعتين أو ثلاث، من خروج قسم السيد إلى عمله، واحدة من تلك العودات المفاجئة حين يسمح له شيخه، وغالبًا ما يكون ذلك في منتصف الأسبوع، حيث يقل عدد الزوار عنده، ولا يكون بحاجة إلى درويش متمرن لإيقاد الهوس في المكان، ويكتفي بدراويش أكفاء ورزينين، يعرفون أمام مَنْ يمجدونه، وأمام مَنْ لا يفعلون. وجد البيت كما يعرفه جيدًا، ممتلئًا بصياح جدته، وخاليًا من أي خادمة، وجد السارة تقاوم صراخ الجدة، الذي يحاول أن يقتلعها من هوس موسوعة جينيس، ابتسم في رضا. لا شيء قد تغير. ولو كان قد جاء مبكرًا قليلًا، لما ابتسم بكل تلك الأسنان البيضاء الناصعة حين يرى شابة عجوزًا، وخادمة تعمل. المزيون بالذات، هو الآن الحل المتاح لقسم السيد في معضلة سميتا. ليس المزيون الأخ، ولكن شيخه. الحل الذي جعله يترنح باتجاه مكتب رئيسه.

وقف أمام رئيسه بنفس الوقفة التقليدية غير المبدعة، التي يقفها كل مرؤوس أمام رئيس. الرأس مُنكَّس باتجاه الأرض، اليدان خلف الظهر في استكانة، وإحداهما تتحرك من حين لآخر، لتحك رأسًا لم يكن من الضروري حكه. شاهد يدي رئيسه ثابتتين، وتكتبان بالقلم بلا أي رعشة، وتنهد في ارتياح: إذًا لم يتصلب ولم يفقد الذاكرة، ويتركه لضميره حتى يعذبه.

- لم أتلقَّ شكاوى في حقك في الفترة الأخيرة، من المحتمل أن أغير رأيي عنك لو استمر الوضع هكذا.

إنها واحدة من جمل رئيس الحراس المفضلة، وغالبًا ما تكون افتتاحيته، أو بداية انطلاقه لأي حوار يجريه مع واحد من حراس البوابة الذين تحت إمرته، وكانوا أربعة، يتطورون أحيانًا إلى خمسة، أو يتدهورون إلى اثنين فقط. لقد قيلت هذه الجملة في حق قسم السيد وحده أكثر من سبعمئة مرة، طوال اثني عشر عامًا قضاها حارسًا لبوابة فندق سواري، وأصبحت في النهاية مجرد جملة بلا ظلال، يمكن تجاهلها تمامًا، أو إن شاء أحد أن يعتبرها بصقة لم تسقط على ثيابه.

- شكرًا سيدي.

قالها قسم السيد، وكانت هذه أيضًا ردة فعل الحراس التي من المفترض أن تلي الجملة المستهلكة، هذه أيضًا بلا طعم، ويمكن اعتبارها بلعًا للريق، لأن اعتبارها بصقة غير جائز، وهي ترد للمسؤول. كان قسم السيد بحاجة إلى إجازة، لن يستطيع تغطية غيابه مرة أخرى، ويوجد زميل لم ينم منذ ليلتين. والحارسان الآخران في إجازة سنوية، ويوجد واحد يعمل بأجر يومي، يتم استدعاؤه في حالة وجود فراغ، أو زحام يستوجب وجود أكثر من حارس.

- أريد أن أطلب إجازة يا سيدي.

لم تتغير ملامح الرئيس، لم تجف أكثر، حتى بعد أن رفع وجهه كله، وواجهه به:

– عدت من إجازتك السنوية منذ شهر، ولا تستحق إجازة في الوقت الحاضر.

– أعرف يا سيدي ولكنها ظروف طارئة.

– مثل ماذا؟

بالطبع لن يخبره أنها مسألة تعاطف قوي اسمها مهمة إغاثة امرأة ضائعة، ويعرف برغم الجملة الاستهلاكية التي سمعها من رئيسه للتو، أنه حارس تم تصنيفه حارسًا بلا جدوى منذ وقت طويل، وُبِّخ عشرات المرات، وتلقَّى لومًا بسخاء لم يلم به حتى فريق كرة القدم القومي وهو يخسر مباراة تلو أخرى، ولولا أنه اكتشف ذات يوم، مصادفة وبلا قصد أمني حساس، سلاحًا مخبأً في حقيبة ناشطة من إحدى الحركات التحررية، قدمت إلى سواري، وكانت ستستخدم السلاح في تفجير رأس سفير أجنبي يحتفل بالعيد الوطني لبلاده داخل الفندق، لتم تشريده منذ وقت طويل. اعتبر في تلك الأيام حارسًا مثاليًّا، وذا مواهب متفوقة، ظنه المحتفون به يبكي فرحًا لإنقاذه سمعة بلاده، بينما كان بكاؤه في الحقيقة تعاطفًا مع الناشطة الحسناء، التي تنحدر من أسرة راسخة في البلاد، ويبكي تحسرًا على رأسها الجميل الذي يتخيله معلقًا على حبل مشنقة. لن يخبره،

والرئيس يحتاج إلى مبرر، وكان المبرر لحسن حظه موجودًا، وقفز إلى ذهنه في اللحظة الفاصلة بين عدم تغير ملامح الرئيس، واحتمال تغيرها:

- العجوز عاقبة.. جدتي التي ربتني منذ مات أبواي يا سيدي، أصيبت فجأة بانفصام الشخصية، إنها في حالة حرجة، ترتدي فستانًا أحمر قصيرًا، وتصبغ شعرها، وتغني أغنية «هاتف جوال يا حبيبي تعال»، وتصر على الذهاب إلى شارع النيل لملاقاة حبيبها. هذه هي الظروف يا سيدي. يمكنك التأكد بإرسال أحد إلى البيت ليرى بنفسه.

بدا أن رئيس حراس الأمن قد اصطادته معضلة لم يصادف مثلها من قبل، حتى حين كان قناصًا في الجنوب، شارك في قمع الكثير من حالات التمرد، بدا أنه غير مصدق، ثم شبه مصدق، وأصبح في النهاية مقتنعًا وأبدى مرونة خلاقة:

- وماذا فعلتم في هذه المشكلة؟

- لا شيء حتى الآن يا سيدي، ربطناها إلى سريرها، وسنأخذها إلى المستشفى حالًا إذا سمحتم، سيادتكم.

كانت الخطورة تكمن في ما لو أراد الرئيس أن يستوثق، وقام بإرسال شخص بالفعل أو ذهب بنفسه للتأكد من مزاعم قسم السيد الذي كان يعتمد على منظر الصباح الباكر الذي شاهده قبل خروجه

من البيت، ولا يدري أن المنظر قد تغير كلية، وعاد قديمًا جدًّا كما كان دائمًا، والجدة ستكون في لحظة قدوم أحد ما لاستكشاف حالتها، جدة تقليدية بحتة، بنصف أسنان، وشعر أعادت طلاءه بالحناء فعاد برتقاليًا، وتجلس على مقعد منخفض في حوش البيت، تطهو على الفحم، وترتدي سروالها الرجالي الأبيض الفضفاض، وتتدلى أسفلها محفظة الجدات، التي لا يسلم من تعليقها معظم جدات الوطن.

- اذهب.. خذها إلى المستشفى حالًا، ولا تعود إلا بعد أن تستقر حالتها.

كان المسؤول يردد بينما يبحث في دفتر صغير عن رقم حارس البوابة الاحتياطي الذي يتم استدعاؤه كلما كانت ثمة حاجة لذلك.

الفصل الرابع

دار المزاين وابن بريك الحكَّاء

انقطعت إجازة المزيون المتدرب للعمل بصفة درويش مستقبلي، والتي من المفترض أن تكون خمسة أيام أو ستة، فجأة، لأن ثمة حاجة ملحة لخدمات شيخه المزيون الكبير قد لاحت في الأفق، ولا يدري قسم السيد، هل هو إلهام من السماء، أم مجرد مصادفة من النادر جدًّا أن تحدث في مجريات الحياة، حين هبت سميتا من دكة المطرودين، وهي ترقص فرحًا، بعد أن أخبرها بقراره المتمثل في أخذها إلى شيخ اسمه المزيون، ويقيم في قرية دار المزاين القريبة من العاصمة من أجل أن يفتي في حالتها على الأقل. فقد كان الرجل الذي جاءت تبحث عنه، وأضاعت اسمه وعنوانه.

كان عدد المطرودين قد تناقص على الدكة بعد أن تشتت معظمهم في المدينة يبحثون عن مأوى آخر، في حين ذهب بعضهم إلى سفاراتهم من أجل ترتيب عودة كريمة إلى بلادهم. لم يبق سوى عجوز نمساوي أحمر الوجه، وله شارب هتلري، أصرَّ بعناد لا يوجد إلا عند دكتاتور هزم شعبيًّا بجدارة ولم تنهزم غطرسته، أن يأتي السفير إليه ويفاوضه ويستمع إلى مطالبه، وكان قد تجمع عدد

من المارة حوله، يستمعون إلى مطالب غريبة لم يسمعوا مثلها من قبل، كان أبرزها تغيير اسم شارع «ماريا هفلر» في وسط فيينا إلى شارع «همفري بوغارت»، والاعتراف رسميًّا من قبل الدنيا كلها بأن أمريكا هي إبليس العالم الجديد، وطرد زوجته التي عاشت معه العمر كله من شقة الزوجية قبل أن يعود إليها. وكان الشاب اليوناني المضفر الشعر الذي أضاع عشيقه في البلاد البدائية الموحشة، موجودًا أيضًا، يؤمن بالمصادفة التي هي خير من ميعاد، ويحدق في الطريق بلا توقف، بحثًا عن ملامح ذلك العشيق.

كان المزيون الأخ، درويش المستقبل، فرحًا للغاية بكونه سيعود إلى منبع الدراويش، حين أخبره قسم السيد وهو يتسلل على أطراف أصابعه، تاركًا سميتا تتحاوم في الطريق قريبًا من باب بيتهم، ارتدى ملابس الصوفيين الخضراء على عجل، وعلق مسبحة ضخمة من ثمار اللالوب حول رقبته، ولبس حذاءً مؤقتًا من وبر الخراف الرخيص، حتى إذا ما وصل إلى دار المزاين خلعه عن قدميه ومشى حافيًا كما يمشي الدراويش عادة. لم يكن يملك صلاحية أن يعاين سميتا أو غيرها بأي حال من الأحوال، واكتفى بأن استمع إلى ملخص صغير عن علتها، من أجل أن يستأذن قبل إدخالها إلى الشيخ المزيون. وحين وصلوا إلى دار المزاين، بعد ساعتين من الجلوس في باص مهلهل، وشديد البطء، صرخ المزيون منفعلًا: حي قيوم.. خلع نعليه فعلًا،

وضعهما تحت إبطيه، وقاد مرافقيه في الدروب الضيقة والملتوية. لم تكن دار المزاين بلدة كبيرة أو مميزة، كانت تشبه إلى حد كبير كل القرى التي عبروها في طريقهم، والتي يمكن أن يعبروها لو استمروا في الطريق الطويل الذي يتغلغل داخل مساحات شاسعة من البلاد. ولولا أن أحد سكانها شيخ بسمعة المزيون، التي وصلت إلى غانا وجاءت بامرأة مستشفية، لما انتبه إليها حتى جباة الضرائب وهم يخيطون الوطن بحثًا عن أي تربة يمكن أن تستخرج منها ضريبة. كان قسم السيد يعرف دار المزاين جيدًا بحكم ارتباط أبيه الراحل بها لدرجة أن سمى ولدًا باسم شيخها، لكنه لم يزرها قط من قبل، ويبدو أنه تخيلها أعظم من مجرد بيوت متهدمة وحفر، وحمير وإبل تتبختر في الطرق، وتمد أعناقها عبر حوائط البيوت، لأنه أصيب بمغص مفاجئ، ولا يصيبه المغص المفاجئ إلا حين يحس بالخسارة، ولعل المزيون الأخ كان مقصرًا حين تحدث عن أشياء كثيرة في دار المزاين، حدثت أثناء وجوده هناك، وأغفل التحدث عن دار المزاين نفسها. غير مهم، المغص كما جاء يذهب، ويبقى موضوع الأفريقية التي يقطرها الآن خلفه، وتبدو صامتة، ومستسلمة، وفي قلبها أمل. وقد لاحظ قسم السيد وهم يسيرون في أزقة البلدة، متجهين إلى مقر الشيخ الواقع في الطرف الآخر، بعيدًا عن سكة المواصلات، أن أخاه يحظى بعالم متكامل هنا، فيه حفاوة ومبالغة في الحفاوة، ويمكن

بقليل من التخيل الماكر أن يتوقع عشقًا وهيامًا وأفعالًا جنسية أيضًا، لأن الأطفال الصغار كانوا يتبعون خطواته العريضة بصبر، ويتعلقون بثيابه، الفتيات الناضجات لابسات الفساتين والطرح الملونة، يبتسمن له بشقاوة، وواحدة في نحو الثلاثين كانت تقف بقميص أخضر شفاف أمام باب بيتها، رفعته حتى محاذاة الفخذين، حين سقطت عليها عينا المزيون.

كان مقر الشيخ عبارة عن قرية أصغر داخل القرية الصغيرة، معظم بيوته من الطين، والصفيح المتآكل، يزينه مسجد كبير أخضر اللون بمئذنة عالية، ويبدو بيت الشيخ شخصيًّا، مميزًا بشدة، كان كبيرًا في المساحة، ومبنيًّا من الحجر الخشن، وثمة عيادة طبية يشغلها ممرض، ودكان صغير لبيع السلع الخفيفة والخضراوات، وجمع من الناس: رجال ونساء وأطفال يتحركون في المكان بلا هدف محدد. أول من استوقفهم شاب في نحو السابعة والعشرين، يمشي ببطء بسبب قيود الحديد التي تحيط بقدميه، ويربط رأسه بعصابة صفراء، وعلى كتفي ثوبه البلدي المفصل من قماش التيترون، كانت ثمة رتبة عسكرية مَخِيْطَة بإهمال، رجَّح قسم السيد برغم عدم تأكده أنها كانت ستكون رتبة مشير في الجيش لولا أن نجمة إضافية قد خيطت. توقف الشاب أمامهم، دق قدمه اليمنى محدثًا صلصلة، هي صلصلة الحديد التي تقيده، ورفع يده في تحية عسكرية حقيقية وصلبة، قال، وكان صوته مجروحًا:

- مرحبًا أيها الجنود.. أنا (ما بعد المشير).. شكاك روعة الثعيلب.

كان اسمه الذي ركبه بنفسه بلا شك، وبوعي بعيد تمامًا عن حالته الراهنة، خليطًا من ثلاثة ألقاب معروفة لثلاثة من أهم لاعبي كرة القدم في البلاد على الإطلاق.

شكاك، كان حارس مرمى فريق الشعلة القوي، حتى قبل أسبوعين ماضيين، وهاجر إلى إحدى دول الخليج العربي لتأمين مستقبله، وهو يدرك تمامًا أن أعمار لاعبي الكرة في بلاده أقصر من دورة حياة ذبابة منزلية.

روعة، ما زال مهاجم فريق العاصمة المميز، ومنذ يومين بالذات، أحرز هدفًا قاتلًا في مرمى خصمه، وصعد بفريقه إلى التتويج.

الثعيلب، كان مدافعًا جسورًا في أحد الفرق الكبيرة، ورمزًا للقوة والإرادة لدى جمهور عريض من متابعي كرة القدم، وعثر مصادفة منذ عامين على فتوى غير مؤكدة وردت من مكان بعيد، تُحرِّم لعب الكرة، وتَعُدُّه رجسًا من عمل الشيطان، فلم يلعبها بعد ذلك قط.

بدت سميتا ثابتة الأعصاب أمام ما بعد المشير المقيد، وربما راضية وهي تشاهد أنموذجًا أخاذًا لمعتوه حقيقي، يبدو الآن تحت

سيطرة الشيخ، ولدرجة أنها استخفت بشيطانها، وعَدَّتْه قد خرج من جسدها سلفًا، بينما ارتعب قسم السيد بشدة، واحتمى بالمزيون بأن أمسكه من يده، فقال المزيون بنبرة قاطعة:

- لا تخفْ منه؛ فما عاد (أحمد سليمان عنبر)، الذي يسمي نفسه شكاك روعة الثعيلب، يُخيف أحدًا، لقد أتلف الشيخ المزيون سبعين في المئة من شياطينه، والبقية قيد الإتلاف قريبًا.

عندئذ انتقل ما بعد المشير، في نظر قسم السيد محارب، من مرحلة أن يخيف إلى مرحلة أن يستدر التعاطف بجدارة، ورآه وهو يبتعد جارًّا قيوده، ويؤدي التحية العسكرية الصلبة لامرأة عجوز نائمة في ركن أحد البيوت وحمار مربوط على مقربة، مسكينًا جدًّا، وبحاجة لأن يتذكره زمنًا طويلًا قبل أن يضيع في لجة تعاطف آخر.

لم يكن الدخول على الشيخ المزيون أمرًا روتينيًّا كما قد يتخيل البعض. وتلقاهما عند بابه المزين بآيات قرآنية وكتابات أخرى بالغة التعقيد، رجل في أواخر الأربعينيات، طويل ونحيف، وداكن البشرة بشكل لافت، يرتدي ثوبًا أزرق عليه بعض الرقع البيضاء، وفي صدره ثلاثة جيوب عريضة، ويمشي حافي القدمين. كان مساعد الشيخ الأهم في الوقت الحالي، اسمه (المهدي عربان)، جاء من غرب البلاد منذ زمن، تدرب عند الشيخ طويلًا، وتدرج في الدروشة وما بعدها حتى أصبح مساعدًا، وسعى بكل ما أوتي من جهد وصبر

أن يسمي نفسه الشيخ المصباح، يستقل بنفسه عن شيخه، ويكون مجتمعًا آخر في بلدة أخرى غالبًا ما تكون قريبة من موطنه، سماها افتراضيًا، دار المصابيح وحدد موقعها بدقة في ذهنه، لكن للأسف الشديد فإن اللقب لم يلصق به قط، والأتباع المفترضون، الذين فكر فيهم طويلًا، وتحدث إليهم بسخاء، ومنح بعضهم تمرًا وماءً قرأ عليه أوراده، كانوا في الواقع جنود حامية عسكرية تابعة لسلاح المشاة، كانت مرابطة بالقرب من دار المزاين، ورحلت ذات ليل إلى الغرب بعد تزايد الاضطرابات هناك. لم يكن أمام المهدي في الوقت الحاضر، وبعد أن اكتشف الشيخ بعض نياته وحذره صراحة، سوى أن ينتظر، يعمل مساعدًا كما كان دائمًا، ويتحمل بكثير من عزة النفس المجروحة، وضعه المزري كشيخ من الدرجة الثالثة، ويحاول تجميل ذلك الوضع عند مجيء الغرباء الذين لا يعرفونه ولا يعرفون سيرته، لدرجة أنه أحيانًا يباشر علاج المجذوبين وذوي العاهات من دون أن يعرضهم على الشيخ. كان حافيًا، ولاحظ قسم السيد أن إصبعًا مهمةً في قدمه اليسرى كانت مفقودة، وقدمه اليسرى نفسها لم تكن قدمًا عادية، كانت مفلطحة، وتلامس الأرض مباشرة بلا تقوس. خاطبه المزيون الأخ بلقب شيخي، ولا بد أنه انتعش، لأنه ابتسم، مد يده اليمنى للمزيون ليطبع عليها قبلة طويلة حمقاء، وحَنَى رأسه الأشيب إلى الأمام لينال نصيبه من قبل الدرويش أيضًا، لكن

المزيون لم يقترب منه، وترك القبلة التي من المفترض أن تنطبع على الرأس مجرد قبلة حلم، لا أقل ولا أكثر، كأنه لا يستحقها كما قدر قسم السيد، أو كأن المزيون يوفرها حتى يلتقي الشيخ الذي سُمي باسمه، وتعلق عليه الأفريقية البائسة آمالًا بلا حصر.

- ماذا لديكم في دار المزاين؟

لم يبدُ مستغربًا من وجود امرأة أفريقية مضفرة الشعر وترتدي قميصًا مزركشًا وقصيرًا في ذلك الركب، وقد تعوَّد رؤيةَ غرباء يجيئون من بلاد أبعد، ويدين سكانها بديانات شديدة الغرابة، كعبادة الذباب، وتقديس أظفار الأموات، والغريب أنه تجاهل المزيون الأخ تمامًا بالرغم من أنه قبل يده، وبالرغم من أنه من تلاميذ المكان المخلصين، قضى حتى الآن ستة أشهر كاملة، ولم يتبق له سوى عامين فقط ويتخرج، وشيء آخر أكثر أهمية أنه يحمل اسم صاحب المكان نفسه.

لم تكن مشكلة معقدة على أي حال، يستطيع المزيون أو قسم السيد أن يشرحاها، أو حتى الأفريقية نفسها، وكانت تعرف اللغة العربية جيدًا، وتدري سلفًا حين أخبروها عن الشيخ المزيون المقيم في دار المزاين، وأصرت على السفر إليه وحدها، تاركة أهلها وموطنها، أنها لن تكون في حضرة أستاذ جامعي، يتبجح باللغة الفرنسية. شرح له قسم السيد كل شيء، وأضافت سميتا أعراضًا

أخرى للمرض تشرحها لأول مرة، مثل الرغبة في مضغ لسانها، ومحاولاتها المستمرة لانتزاع إحدى حلمتيها، وطلبت مقابلة الشيخ المزيون حالًا، لأنها في وضع لا يسمح بالتأجيل، خصوصًا أنها غريبة ومطرودة من مكان سكناها، وبلا أي وضع جيدًا كان أو غير جيد، ولولا حارس الأمن الشهم هذا لأكلتها الذئاب.

- نعم .. نعم.. إن لم تكن ذئبًا أكلتك الذئاب.

جملة في غير محلها بكل تأكيد، ولا يفترض أن تصدر من مساعد شيخ يسعى للاستقلال بنفسه. لو كان ثمة مجادل في تلك اللحظة، لوقف له في حلقه وأجبره أن يظهر تقديرًا أفضل للأمور، وأمامه مشكلة، لكن لم يكن ثمة مجادل.

كان عدد من سكان معسكر الشيخ قد التفوا حولهم، ليس بدافع الفضول، بقدر ما هي عادة أن يلتفوا حول كل غريب يدخل المكان، وقد ورثوا هذا الالتفاف من آبائهم وأمهاتهم الذين عاصروا آباء الشيخ المزيون، الذين أنشؤوا ذلك المكان. كل غريب ولو جاء من القرية المجاورة يجب أن يحظى بنصيبه من الالتفاف.

- المشكلة محلولة، لكن تدري يا درويش كم يكلف العلاج هنا، أليس كذلك؟

كان يخاطب المزيون الأخ ناظرًا إليه بطرف عينه، والمزيون لا يدري، فلم يكن ذا أهمية في المكان ليدري، يرى المرضى يأتون

ويذهبون، بعضهم يأتي على قدميه، ويذهب محمولًا على السواعد، وبعضهم يأتي محمولًا ويذهب على قدميه، يسمع أن عاهات جبارة قد تساقطت، وشياطين في غاية الخطورة، قد تلفت من دون أن يشهد طقسًا، أو يشارك في جلسة علاج، ويظل يأكل طبق الثريد المخصص له كل يوم، بلا أي تذمر، وغالبًا باحترام شديد ينتظر حتى يفرغ الطبق تمامًا ثم يلحسه. فلم يضربه أحد على يده، أو يجره من شعره ليتدرب هنا.. كان كل شيء باختياره، وكونه قد سُمي المزيون لأن أباه أحب هذا الشيخ لا يعني أنه حدد له مستقبلًا سلفًا.. هو قد حدد المستقبل وحده وفي اليوم الذي اتخذ فيه قراره، وترك المدرسة، وأخبر عائلته، هللت الجدة عاقبة، وهي ترى حفيدًا يمشي في الدرب الصحيح كما تعتقد، في حين بقي قسم السيد صامتًا، والأخت السارة اعتبرته حرًا بما تمتلك من ليبرالية عنيفة وعنيدة، ومجاهد الصغير، لم يكن له رأي على الإطلاق، وفي المرة الأولى التي جاء فيها إلى البيت بزي الدراويش الأخضر، ومشى حافيًا في كل الأركان، يحمل مبخرًا، ويتمتم بلغة دار المزاين الخاصة، بعد أن تعلم شيئًا منها، زغردت جدته زغرودة طويلة، لا تزال حتى الآن أطول زغرودة أطلقت في ذلك البيت الشعبي، على الإطلاق.

– لا أدري يا شيخي.. لكن هذا أخي قسم السيد عامل بسيط في فندق سواري، والأخت المريضة ضيفة علينا من غانا، جاءت

خصيصًا لرؤية الشيخ، وخانتها الظروف.. تعلم أن الظروف تخون الناس أحيانًا.. نعم يا شيخي.. خانتها الظروف.

- في هذه الحالة، نعفيها من أجرة العلاج، وتتبقى أجرة الأكل والشرب والمبيت، وغسل الملابس، أنت تعرف.. أليس كذلك؟

التقط قسم السيد الحوار من فم المزيون الذي بدا له مترددًا وحذرًا. كان تعاطفه قد بلغ حدًا كبيرًا، ويرى المرأة قد بدأت تتداعى وأصابها شيء من الدوار، لأنها استندت إلى كتفه مغمضة العينين:

- كم يكلف هذا يا شيخ؟

- مئة ألف دينار يا أخي.. تدفع نقدًا. نحن لا نقبل غير النقد.

بالطبع لم يكن أحد من الثلاثة يملك نصف هذا المبلغ ولا ربعه ولا عشره، ولا واحدًا في المئة منه، ولم يتوقع قسم السيد قط أن يكون علاج المتصوفة بكل هذه التكلفة، إضافة إلى أن الرجل لم يضع حسابًا لأخيه المزيون، وكان من الأحرى لو وضع حسابًا حقيقيًا له، أن يفتح ذراعيه، ويصيح في الغانيَّة، أن تدخل على الشيخ حالًا. فكر المتعاطف سريعًا، وخطرت في باله من دون مشقة، صاحبته الكونتيسة.. الرسامة، عاجنة الحناء، مصففة الشعر، وصاحبة البيت المستتر وسط بيوت واضحة. سوابقها كثيرة في عمل الخير بالرغم من كل شيء، ولو لم تكن محبطة، وترسم لوحة مشوهة في المرة الأخيرة التي رآها فيها، لكان قد عرض عليها المأساة كلها، ومئة ألف دينار

لهؤلاء المخرفين، لن تكون مبلغًا جسيمًا، كانت ستدفعه عن طيب خاطر. سيفاوض الآن من أجل أن تبدأ الأفريقية أولى خطوات علاجها، وغدًا في النهار حين يغادر سيذهب إلى بيت الكونتيسة مباشرة. هو الآن في إجازة، بل تحت أوامر قاطعة من رئيسه ألا يعود إلى سواري إلا بعد أن تسترد الجدة زمانها الحقيقي من جديد. ولا يدري أن الجدة استردت زمانها كاملًا، واليوم اقتنت عصًا جديدة، غيرت حجارة الكهرباء في مصباحها اليدوي، ومصممة على إخصاء لص مفترض، سيحاول السطو على بيتها تلك الليلة. وغدًا صباحا بالذات، سيكون ثمة أمر جلل، وستنشر سبع وعشرون صحيفة محلية من أصل ثلاثين تصدر في البلاد بانتظام وبغير انتظام خبرًا عريضًا، يؤكد انتحار تيجان مهاجر، التي كانت تلقب بالكونتيسة، وقدمت الكثير من الخير والشر للوطن.

– وإذا لم يكن المبلغ موجودًا، هل تعود المرأة إلى ديارها والجنّي يركبها؟

تحدث قسم السيد، وثراء الكونتيسة يداعبه.

بدا أن مساعد الشيخ يفكر، بدا أنه قد تعمق في التفكير، ومهما يكن، فلا بد من المرونة أحيانًا، خصوصًا مع الغرباء الذين يأتون من بعيد. لتزدهر دار المزاين، وتصبح قبلة لذوي العاهات، لا بد من مرونة. ولا ينسى الراهب البوذي شاندران، الذي سمع بالمزيون

وجاءه هزيلًا ومفلسًا، ومصابًا بالبهاق، واستعاد لون بشرته، ليأتي من بلاده عشرات البهاقيين من غير المفلسين، أنعشوا المكان بمالهم وهداياهم.

– حسنًا .. سنتسلم المريضة، ونباشر علاجها، وتتعهد بإحضار النقود فيما بعد.. على بركة الله.

في الغرفة الواسعة، التي من المفترض أن يُستضاف فيها ذوو المرضى المربوطين لدى المزيون حين يأتون لزيارتهم من حين لآخر، والتي أُخذ إليها قسم بعد أن اختفت سميتا في الداخل غير المكشوف من المكان، وضاع المزيون في زخم إخوانه الدراويش المتدربين، والمدربين، كان ثمة شاب من السعودية اسمه (غيث بن بريك الدهوي). هذا هو اسمه الذي عرَّف نفسه به، وإن كان المهدي الذي رافق قسم السيد إلى الغرفة، قد قدمه باسم (فاضل بن عياد المزيني)، ولم يعرف قسم السيد أي الاسمين هو الحقيقي، خصوصًا أن الشاب لم يصحح خطأ المهدي، والمهدي لم يعترض على استخدامه لاسم آخر. كان يبدو في وضع مالي لا علاقة له بدار المزاين، ولا أي بلدة أخرى تشبهها على طول الطريق. هو الذي رتب الغرفة باختياره حين أحضره أهله للعلاج في الأسبوع الماضي، ويقيمون في بيت استأجروه في العاصمة، وسمح لهم باستضافة الزائرين عنده، ولا سيما أن الغرفة هي أصلًا مكان استضافة الزائرين قبل

أن يدخلها بسنوات طويلة. كان قد اختص نفسه بسرير ضخم من خشب الزان نُجر في العاصمة على عجل، وخزانة من حديد راق، تتسع لثياب قبيلة من البشر، وتلفزيون ملون قياس أربعين بوصة من ماركة «إل جي» بشاشة كريستالية، يراه قسم السيد لأول مرة في حياته، ولا يتوقع أن يرى مثله مرة أخرى في القريب العاجل. الشاب الذي بدا مثقفًا، ومغرمًا باللغة العربية وآدابها، وتراثها الحافل، ولا يعترف بانهزامها أمام اللغات الأخرى، وأنها تعامل في الغرب لغة من الدرجة الثالثة، لم يُخفِ إعجابه بكتابات الأولين، أئمة اللغة كما كان يسميهم، خصوصًا أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الذي تعود جذوره لزنوج شرق أفريقيا، وردد أمام قسم السيد والمهدي وشخص آخر، كان زائرًا عاديًّا يبدو ملولًا أو جائعًا، أن الناس يتحدثون كثيرًا عن كتب «البخلاء»، و«البيان والتبيين»، و«الحيوان»، وينسون أهم كتاب ألفه الجاحظ في حياته، وهو «كتاب التحرير» الذي رصد فيه كل شيء، تابعه بدقة على القنوات الفضائية، أو وصله في رسائل على تويتر، وفيس بوك.

– لقد نسيت نسختي المطبوعة للأسف، لكن معي بعض الأوراق.

كان الشاب قد نهض من رقدته، انشغل بالنبش في حقيبة جلدية من حقائب اليد، كانت موجودة بجانبه على الأرض، استخرج منها عدة أوراق مرتبة، وضعها أمام عينيه، وابتدأ يقرأ:

⏮ في باب السؤال الملح:

ألح علي السؤال بشدة، بعدما علمت بأن السيدة الأولى حرم السيد الرئيس قد هربت من البلاد بطنٍّ ونصف الطن من الذهب. كيف حملته يا ترى؟ لو ارتدته على عنقها لانكسر العنق والظهر وسائر الجسد، لو أرادت توزيعه على جسدها بحيث تضع في كل حفرة خاتمًا، وفي كل نتوء عدة أسورة، لاحتاجت إلى ثمانين ألف امرأة في حجمها، يتوزع الذهب على أجسادهن. كيف يا ترى هربت بطنٍّ ونصف الطن من الذهب؟

وأنا في السوق استوقفت (حسان بن المفتي) الحطاب، وكان عالمًا مختصًا في تكسير الحطب، وفي الوقت نفسه، غاص بعلمه في أشياء أخرى من غوامض الحياة. قلتُ: دبرني يا أبا المفتي، قال أمر هين يا صاحبي، حملته قطعة قطعة طوال خمسة عشر عامًا، أو تزيد، وتكون طنًّا ونصف الطن في المهجر بعد ذلك. لم تقنعني إجابته، وظللت دائرًا في السوق، أتفرس في الناس، أقول أسأل هذا أم لا أسأله؟ أسأل هذه أم أتركها؟ حتى صادفت عتيقة الغجرية، وكانت ترتاح لي وأرتاح لها، وهي امرأة نابهة، وضاربة طبل ودف، وامتلكت كثيرًا من سبائك الذهب من عشاقها الكثيرين. قلتُ: يا عتيقة، يا ابنة الرجل الذي لا أعرف اسمه، وليس من الضروري أن أعرفه.. لو كنت سيدة أولى وحرمًا لرئيس مخلوع، كيف تفرين

بطن ونصف الطن من الذهب؟ أطرقت إلى الأرض قليلًا ثم رفعت وجهها، وكان كالقمر في استدارته، وفيه عينان لا تملكهما حتى غزلان المها، قالت: يا أبا عثمان، أنت سألتني ولديَّ الجواب، أحب أن أكون سيدة أولى، ولكن لرئيس لا يحب الخلع، ولا يلتفت لكل اللافتات التي تصرخ ليل نهار: ارحل.. ارحل. لكن إن قدر الله وصرت ما صرت وأردت الفرار بطن ونصف الطن من الذهب، فإنني أصهره، وأحوله إلى طائرة أركبها ساعةَ أفر.

احتضنتُها بلا وعي، ناسيًا أنني كنت في السوق، وأن لحيتي المخضبة كانت تشير إلى شيخوختي، أكثر مما تعيدني شابًا.

هذا الكتاب، كتاب التحرير، وهذه الفقرة التي قرأها ابن بريك توًا أمام ثلاثة ربما لم يسمعوا بالجاحظ قط من قبل، وربما سمعوا به، ويستغرب اثنان منهما، ليس بينهما المهدي الذي يعرف علة ابن بريك بالطبع، وجود هذا المؤلف القديم في زمن يموج بالمحن كهذا، وتتحرك بداخله ثورات، كتبت في البداية خواطر حالمة في صفحة فيس بوك، قبل أن تنفذ كاملة على الأرض. هذا الكتاب، «كتاب التحرير»، وهذه الفقرة بالذات، نبَّها قطاعًا كبيرًا من معارف ابن بريك، وطلابه الذين كان يعلمهم اللغة العربية في مدرسة متوسطة، وأهله الذين يأكل ويشرب معهم، إلى خلل كبير في عقله، بحاجة إلى ترميم. طاف به والده على أطباء الأمراض النفسية كلها، وكان

ثمة هدوء مؤقت، تعقبه فقرات جديدة في كتاب التحرير، تحدث الجاحظ القديم على أوراقه كثيرًا، وبلغت تلك الأوراق في مجملها حتى الآن مئة وتسعين صفحة، ولولا أن الشيخ المزيون الذي كان خيارًا أشير به على أهله، تدخل بينه وبين إقحام أحد أعلام التراث القديم في مصائب هذا الزمان، لكتب الجاحظ عن توريث الحكم عند الجمهوريين، وربما تحول في إحدى الفقرات إلى رجل أمن شديد الرعونة، يتباهى بإطلاق الرصاص على العزل. لم يترك ابن بريك مستمعيه، وحتى بعد أن أحضر أحد الدراويش طعام العشاء، يستريحون من فقرته الغريبة أو يلتقطون أنفاسهم، قلب أوراقه في تأن، وانتقى فقرة أخرى، وكان صوته قويًّا جدًّا، وهو يفلتها، وتضيع داخل الصوت قرقرة مصارين الزائر العادي، الذي اتضح الآن أنه جائع أكثر من كونه ملولًا:

باب فضح العرب والعجم:

حدثني الصديق ويكيلكس عن العرب قال: هم قوم كانوا يوقدون النار، ويكرمون الضيف، وتنبح كلابهم في الليل بلا انقطاع، وتقصدهم العجم للاستفادة، وتعلم الطب والحجامة، وحين يسيحون في البلاد، يرتدون البذلات وأربطة العنق، وينصبون خيامهم في حدائق الفنادق من فئة الخمس نجوم، يرتعد كل أعجمي.

قلتُ: يا ويكيلكس، يا صديقي، ماذا جرى لهم الآن؟

قال: لن أرد عليك، ولكن أحيلك إلى موقعي في الإنترنت. اقرأ وثائقي.

حدثني بعد ذلك عن العجم..

لا بد أن العشاء المكون من ثريد معجون في مرق الدجاج، وطبق يحتوي على قليل من البيض والطماطم قد برد، وقد تصلب، وما تزال أبواب كثيرة في «كتاب التحرير» المرتب بين يدي ابن بريك، لم تفتح بعد، باب أن تعشق وتعشق، باب البكاء على الأبراج الإسمنتية، باب انفصلوا والرزق على الله، الذي كتبه أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، عن بلاد تمزقت، وباب الاندساس وسط الشرفاء، الذي كان بابًا ناقصًا للأسف، لم يستطع المؤلف إكماله لظروف خارجة عن إرادته. كان قسم السيد قد أقسم في تلك اللحظة، أن يجعل ابن بريك هدفًا جديدًا لتعاطف سيستمر طويلًا إذا ما بقي في تلك الحالة، سيسعى لمتابعته عبر زيارات أخيه المزيون، لأنه لا يستطيع الإقامة هنا وبوابة فندق سواري تدار الآن بمساعدة حارس متقطع، وسميتا يبدو أنها تمضي في طريقها الذي رسمته يومَ قررت المجيء وحيدة وعَزْلاء، باعت مصوغاتها القليلة، ولم تخبر حتى ذويها أنها ستغوص في بلاد بعيدة كهذه. مهمة إغاثة امرأة ضائعة، إذًا، ستنتهي قريبًا، خيرًا أو شرًا ستنتهي، وغالبًا ما تترك فراغًا هائلًا في التعاطف،

قد يملؤه ابن بريك بجدارة، لكن ما كان يُحيِّره هو تلك المنطقية الغريبة في وصف العصر، وهذه الأيام بالذات التي تفور بالكثير مما ذكره، وقد سمع وشاهد في قنوات الفضاء جزءًا من صفحاته. تخيله ضحية، ولم يستطع أن يحدد بالضبط كيف أصبح ضحية؟ وما السبب في ذلك؟ لكن من المؤكد أنه ما يزال بحاجة إلى مجهود أكبر من الشيخ المزيون. وبدت له سميتا بشكلها العادي، وميلها أكثر إلى الصمت، وأنها لا تقتني أوراقًا تتحدث بهذه الضراوة عن أفريقيا وغير أفريقيا، امرأة بلا أي علة على الإطلاق، وفكر للحظة أنها قد تكون محتالة من صنف غير تقليدي، وأنها أضاعت وقته ونبضات قلبه في تعاطف غير ضروري، وهزت علاقته بالمغنية التي كان يُدمن خدمتها، لكن الوقت كان قد فات ليعود إلى البداية من جديد، مجرد حارس أمن عادي يدفع امرأة مطرودة من ظهرها، ويلقي بها وبحقيبتها في الطريق، أو يبدأ مهمة تسمى: هجر امرأة ليست ضائعة. العشاء برد وتشنَّج ابن بريك الحكَّاء الآن بغتة، وصرخ صرخة لا علاقة لها بأبواب الكتاب، ثم صمت، أعاد الأوراق بترتيبها نفسه إلى حقيبة الجلد، استلقى على ظهره، وبجهاز تحكم عن بعد، أشعل التلفزيون الكريستالي الكبير، وكان متوقفًا عند قناة الجزيرة، وثمة تقرير ساخن يتحدث عن ثورة شعبية، تدور في مكان ما. لم يمكث المهدي بعد ذلك أكثر من دقائق معدودة، خرج بعدها

تاركًا قسم السيد والضيف الآخر واجمين، يحاولان أن يبتلعا اللقم اليابسة بتطريتها بالماء، وحين عاد ليخبر قسم السيد أن المرأة في أمان وقد شخص الشيخ علتها، وحدد مدة بقائها شهرًا أو شهرين على الأكثر، حتى يطَّهر جسدها كاملًا، ويمكنه أن ينصرف باكرًا، ويعود في أقرب وقت بالمال، ثم يمضي إلى حياته تاركًا لهم المهمة.

الفصل الخامس

تغيرات

- ١ -

موت الكونتيسة المباغت هزَّ قسم السيد محارب. لا شك أنه هزه، وتهزه في العادة أشياء أتفه من موت امرأة، تنازلت كثيرًا عن مكانتها في المجتمع، وأمدت حارس أمن فقير في فندق بلا رقي كبير، خامات المتعة نفسها التي كانت تمد بها الكبار. هزه وثمة لوحة بنصف وجه ونصف جسد ما تزال عالقة بعينيه، وتطهر ظنه خدعة من خدع تقلب المزاج عند امرأة رسامة وعاجنة للحناء، وقابلة لتقلب المزاج، وكان تطهرًا أبديًّا. ولولا أنه الآن في موقع رثاء خاص لتيجان مهاجر، أو هيلان نقوشا إذا أعيدت لأصلها الإثيوبي، ناسيًا حتى أنه أودع مريضة في مكان قاحل وتعهد بجلب ثمن دوائها، لتعاطف مع نفسه، وبكى؛ إذ لا منبعَ آخر يمكنه أن يغرف منه ويسد علاج المرأة الضائعة.

كان قد هبط في موقف الباصات عائدًا من ليلة متورمة بفضل ابن بريك الحكاء، الذي استمر غارقًا في طوفان قناة الجزيرة حتى الفجر، استخدم هاتفًا نقالًا متطورًا من ماركة بلاك بيري، للتداخل في الطرح المنطقي وغير المنطقي الذي كان يُبث، وتهيَّج مرات كثيرة كاد فيها يفتكُ بهاتفه المتطور، قال بالحرف الواحد، إن نهر النيل بمنابعه وروافده، وتشكيله للخرطوم في منطقة المقرن، لا يعني له

الكثير، وحضارة الرافدين التي ما زال يتشدق بها الحالمون، هي في الواقع حضارة أفنت نفسها بنفسها، وعاد في النهاية إلى أوراقه المرتبة، أخرجها من الحقيبة بتأن، وابتدأ يقرأ بالصوت العالي المتقطع نفسه: باب اللعب بالنار، باب جهنم الدنيا، باب المحترم جوجل، باب أندية التعري، هكذا..

في موقف الباصات ذلك، طالعته الصحف الصادرة في الصباح، تحمل صورة المنتحرة واسمها الذي لم يكن متداولًا على الإطلاق. هب إلى صحيفة في يد أحدهم، انتزعها وابتدأ يقرأ ويلهث. أعادها وانتزع أخرى من آخر، يقرأ ويلهث، الخبر نفسه الذي، كما يبدو، صاغته يد واحدة وعممته على الصحافة كلها. لم يكن قد تعاطف مع الكونتيسة قط من قبل، وما كانت تملك ثغرات تستدر التعاطف، بيتها مرتب جدًّا، مجتمعها مرتب جدًّا، وجدارها العاطفي يبدو غير واضح على الإطلاق. لم ير لها دموعًا تذرف، حتى وهي تقترب من الموت، على العكس كان يحسها تتعاطف معه، ولولا ذلك لما فتحت له قط بابَ بيت من طابقين وله مقبض من الحديد المطلي بالفضة، لما تركت حارس الأمن الضئيل في فندق سواري يلامس نشاطها السري، ولما استدعت في أواخر الليل أجسادًا حية لتؤنسه. كان قد أُجبر على الدخول في نوبة تعاطف جديدة، أُجبر على تذكر فنجان قهوة يتصاعد منه البخار، ويد امرأة مغطاة الرأس تغوص في الألوان لتملأ فراغًا،

وهي في الحقيقة تترك فراغًا. بكى المتعاطف بصدق، بكى بدموع آثمة لو قيست بمنطق الأخلاق، وشريفة جدًّا لو قيست بمنطق العاطفة التي يمكن أن تبكي مجرمًا حين يهوي من حبل مشنقة. أحس وهو يدور بعينيه في المكان المزدحم، أنه أضاع وجهته، لا يعرف أي حافلة يستقل، وأمام عينيه حافلة متجهة إلى حي الورد، حيث كانت تقيم الكونتيسة، كانت شبه ممتلئة، ومستعدة للانطلاق. اتجه بخُطًا مترددة إلى مقهى مجاور، واحد من تلك المقاهي الهشة التي تتكاثر عادة في مواقف السفر، ويمكن أن تنهار بغتة لو نفخ أحدهم أسقفها المصنوعة من القصب، تمَّحِي من الوجود في لحظة لو جاءت الشؤون البلدية، وجاء مفتشو الصحة، وغالبًا لا يجيئون إطلاقًا. طلب كوبًا من الشاي الأحمر الثقيل، ليمحو تورم ليله، ودواره. في أرض المزاين لم يقدموا له شايًا ليصحو من سهره، وما تركه ابن بريك يفر عائدًا إلى العاصمة، إلا بعد أن أكمل المئة وتسعين صفحة من كتابه، واعتذر بشدة أنه مرهق ولا يستطيع إعادة قراءة الأبواب من جديد، وأنه يرغب في معرفة رأيه الشخصي في الحب. لم يكن قسم السيد محارب من الذين أحبوا فتاة بعينها من قبل، لا الآن ولا حين كان مراهقًا، يملك مشروعية أن يحب عشرين فتاة في وقت واحد لو أراد، من طرف واحد أو طرفين، ما يملكه هو داء التعاطف، الذي أصيب به باكرًا، وميز حياته عن كل حيوات أصدقائه ومعارفه، وقد لا يصدق أحد أنه كان يتعاطف مع

العشاق ساعةَ يراهم متماسكين في الشوارع يهمس كل في أذن صاحبه، يراهم مساكين جدًّا، ويتوقع لهم جمر الهجر أكثر من ورد السعادة. حتى نساء الكونتيسة الماجنات، المطليات بشبق مصطنع، ويأتين تحت وطأة الظروف التي تحتم المنكر أحيانًا، كان يستمتع برفقتهن وهو يبكي تأثرًا. قال لابن بريك الحكاء، الذي أراد أن يلهو برأيه في الحب، إنه لا يعرف شيئًا عن هذا الموضوع، ولم يحب قط من قبل. وتركه ابن بريك يفر، لأن مزاجه الشيزوفريني تقبل اعتذاره، ولم يكن ثمة موضوع آخر مطروح للنقاش معه، إضافة إلى ظهور موضوع آخر كما يبدو، ابتدأ الشاب يناقشه مع الحائط بعد أن استدار في سريره. كان الضيف الآخر غير موجود، واستغرب قسم السيد من غيابه غير الملحوظ، فلم يشاهده حين فر كما يبدو في لحظة فاصلة، ربما تكون بين نهاية فقرة من «كتاب التحرير»، وبداية فقرة جديدة.

أنعشه كوب الشاي المخلوط بالنعناع قليلًا، ونهض من المقهى الهش. الآن يعرف وجهته، سيذهب مؤقتًا إلى البيت، يحاول أن يستريح من عناء يومين عصيبين، وحين تسنح فرصة للتذكر، سيتذكر بلا شك أن عليه تدبير مئة ألف دينار يطلبونها بشدة في دار المزاين.

الرجل الذي وقف أمامه بغتة، أمسك بيده، ضغط عليها وحرك أصابعه على جلدها بتلذذ، كان مألوفًا لديه. إنه الإغريقي المضفر الشعر، الذي أضاع صاحبه في هذه البلاد الموحشة إلى الأبد، ويستقل

الآن مواهبه كجنس ثالث، في البحث عن بديل، ولا بد أنه تمزق في الشوارع، وتاه في الطرقات ووصل إلى موقف الباصات ذلك بالمصادفة البحتة، وفي لحظة كان فيها محارب موجودًا، وغارقًا في نوبة تعاطف مهمة جدًّا. كان قد تذكر قسم السيد، الذي شاهده يسحب سميتا الغانيَّة من دكة المطرودين بفظاظة يوم أمس، ويقطع حوارها معه، لم يلفت انتباهه كثيرًا في تلك اللحظة، وما كان جسده الضئيل الذي يترنح تحت زيه الرسمي الفضفاض، جديرًا بلفت نظر شخص ركب سكة السفر بكل مشاقها ومنصرفاتها، بحثًا عن لذة. أهمله، تركه يشد الغانيَّة كما يحلو له، قضى نهاره، وبات ليلته يتأمل الطريق. لكن الأمر الآن مختلف، وحارس الأمن بكل عيوبه، ونواقصه، يمكن أن يصلح بديلًا. انتبه قسم السيد إلى ما كانت تفعله اليد اليونانية في جلده، تذكر الرجل، سحب يده بسرعة، ومضى من أمامه يترنح أكثر، وعيناه خلف ظهره. الآن فقط انتبه إلى أن اليوناني الذي ظنه في البداية يشبه لاعب منتخب الفريق الوطني، شديد الميوعة، ويمكن بحساب خاطئ بسيط أن يتحول في نظر أولئك الغادين والرائحين حوله في الموقف المزدحم، إلى امرأة أجنبية ذات أنوثة صارخة.

كان ثمة تغير جذري يطرأ في البيت تدريجيًّا، فقد انتبهت السارة محارب، تحت ضغط جدتها التي لم تعثر على لص مناسب لإخصائه في الليلة الماضية، وتسلق حائط بيتها غلام في السابعة من عمره، تألم

من لسعة العصا على ظهره، وفر بلا غنيمة، وتوجهت نحو حفيدتها، مذكرة إياها بانعدام الأنوثة لديها، وأشياء أخرى تدخل في سياق التشهير والتجريح، انتبهت إلى أنها بالفعل في متاهة، وأن عليها تغيير نمط طموحاتها، بحيث تستبعد موسوعة جينيس في الوقت الحالي، نظرًا لصعوبة العثور على فكرة لم تطرق من قبل بواسطة معتوه، وصعوبة تطبيق أي فكرة ولو وُجدت في هذه البلاد التي لا تقدر الطموحات، كان عليها أن تبحث عن مخرج جديد، يريحها ويريح جدتها. مسألة الغناء الوطني لم تعد تناسبها حقيقة، وقد استنفدت تقريبًا كل أدوات النبش فيه، وخلصت إلى نتائج باهرة، ستنشرها ذات يوم على الملأ لو أتيح لها ذلك، والبحث عن وظيفة أخرى بعيدًا عن عمداء الكليات الذين يحبون وجه المرأة وجسدها أكثر من حبهم لنشاطها، أمر ستفكر فيه بلا جدال. أرادت أن تتحقق بجدية هل كانت بلا أنوثة بالفعل كما يقولون، أم أنها مجرد ثرثرة عائلية لا ترتقي إلى تصديقها. الغريب أنها فعلت ذلك من قبل، ليس مرة واحدة، بل عدة مرات، وبجدية اليوم نفسها، وتأكدت، وتريد الآن أن تتأكد أكثر. في ذهنها شاب ثرثار اسمه (جعفر سعيد)، ويلقبونه بسقراط، ويعمل محررًا في القسم الثقافي بإحدى الصحف المحلية. وشاهدته عدة مرات في المكتبات المتعددة، حين كانت تذهب لشراء الدواوين الشعرية بغرض نبشها، أو تقليب موسوعة جينيس

الغالية، التي لا يشتريها أحد، والتي استعارتها بعد ذلك من المكتبة العامة. استوقفها سقراط ذات يوم، غير عابئ بمظهرها الخشن، وقلم الرصاص الذي تضعه خلف أذنها، كما يفعل النجارون. في البداية خاطبها بلقب أختي الآنسة، ربما كان ذلك نابعًا من سلاسة في طبعه، وربما كان تملقًا، وكان لسقراط نوعان من المحيطين به. بعضهم يعتبره سلسًا ودافئًا، أبرزهم أمه، والبعض الآخر يعتبره شديد التملق، أبرزهم رئيس تحرير الصحيفة التي يعمل بها.

قال: أختي الآنسة صباح الخير، هناك صنفان من النساء، صنف رائع، وصنف أشد روعة، وأنت من الصنف الأخير.

بهرتها عبارته بشدة، برغم تطفله عليها، وكانت في تلك اللحظة تراجع فهرس القصائد في ديوان (صالح ولد جقود)، الشاعر الشعبي القديم، لترى هل نظم فعلًا تلك القصيدة المبتذلة «صدرك المجرم»، التي أشيع أنه قد نظمها، أم كانت القصيدة مدسوسة في شعره. ابتسمت، وكانت ابتسامة من النوع المغري لمواصلة الحديث، سألته:

- كيف عرفت أنني أشد روعة؟

- لا تفوح منك رائحة المطبخ، وأجزم بأنك لا تجيدين حتى فتح علبة سردين.

لقد أوقعها، والسارة الملقبة سحلية كان من أكثر إخفاقاتها في الدنيا أنها حاولت أن تفتح علب السردين مرارًا، وجرحت يدها.

يا له من مدهش ومكار هذا المنكوش الشعر، الذي يغازلها. أرادت أن تمضي معه في حديث متنوع، ولها وجهة نظر في المغازلين، وهي أن يسمعوا الأقبح من الحديث، قبل أن يتمادوا:

- يلقبونني بالسحلية.

قالت، وضحكت ضحكة التفت لها صاحب المكتبة، وبعض متصفحي الكتب الآخرين، تركها سقراط حتى أخرجت منديلها الأحمر من الحقيبة ومسحت دموع الضحك، مد حبلًا جديدًا.

- إنهم قصار النظر بلا شك، هؤلاء لو تعرفوا إلى (أنجلينا جولي) لسموها السحلية.

طربت، وكانت ستطرب أكثر لو قال (جوليا روبرتس)، لأن جوليا ولو خَفَت بريقها بفعل العمر واضطراب الهرمونات، كانت في نظر السارة أجمل امرأة تشاهدها في حياتها على الإطلاق. أضاف جعفر سعيد الملقب بسقراط، والذي يكتب خواطره في زاوية أسبوعية في صحيفة غير منتظمة الصدور، ويطارد أخبار المثقفين وكتاب النميمة، ويغشى المكتبات ليستمتع بتقليب الكتب، عاجزًا عن شرائها، أضاف نفحة أخرى، وكانت من الجمل الأثيرة لديه، يستخدمها بكثرة ولو لم تكن في محلها. وهذه المرة ليست في محلها بكل تأكيد:

- أكثر ما يزعجني في هذه الدنيا أن أرى فاتنة ولا أستطيع أن أكتبها قصيدة، ليس لأنها لا تستحق، ولكن لأنني لست شاعرًا.

هذه الجملة التي ليست في محلها، استخدمها من قبل في تظاهرة صاخبة تطالب بخفض أسعار الخبز، وفي حق ناشطة كانت من الذين نظموا تلك التظاهرة، ويقودونها في الشوارع، وهو ما عدَّتْه تخلفًا كبيرًا، وإهانة لا تغتفر لنضال المرأة، ومحاولاتها المستميتة للانعتاق من سطوة الرجل، ركلته بقدمها، ولم يعرف أين ركلته إلا بعد أن أفاق في مستشفى حكومي قذر، وعثر على خصيتيه حمراوين ومتورمتين. استخدمها بالتكنيك نفسه في ندوة ثقافية تتحدث عن تأثير الثقافة الأفريقية في السرد الروائي، وشارك فيها باحثون وباحثات في ذلك المجال، ولم تتركه الباحثة التي استخدمها في حقها، يمضي إلى بيته بعد أن انتهت الندوة، ظلت تناقشه في تلك الجملة ساعات طويلة، طافت خلالها بكل ما خلفه الأجداد من وقاحة وقلة أدب، وقالت له في النهاية: لو كنت مثقفًا حقيقيًّا لوقعت على البيان الذي وقعه كل المثقفين، ويطالبون فيه بزيادة هامش الحرية. الآن يستخدمها في حق السارة محارب، وهي أيضًا باحثة، وباحثة بدائية جدًّا بلا أدوات جمالية أو فنية، وهذا الصنف من الباحثات يمكن أن يستخدم أظفاره وأنيابه عند الضرورة، لكن السارة لم تفعل ذلك. عَدَّتْها ترياقًا ستستخدمه ضد لقبها سحلية، كلما أحست بحقد ما تجاه ذلك اللقب، بالرغم من أنها تآلفت معه بشدة، وغالبًا تروج له، كما فعلت الآن مع سقراط. رافقته في جولته الروتينية بالمكتبة حيث يغازل الروايات، ويقرأ في كل مرة يأتي فيها، قصيدة من

ديوان (حافظ الشيرازي)، أو عدة صفحات من رواية (النمر الأبيض)، للهندي أديغا، تاركة ديوان «صالح ولد جقود» بلا تمحيص، عرفت في أقل من ساعة كل ما يمكن معرفته عن رجل غريب، وعرف هو أيضًا ما أراد أن يعرفه. في النهاية سلَّمها رقم هاتفه الجوال، ووعد بمساعدتها إذا احتاجت إلى مساعدة، كأن يفتح لها علبة سردين مثلًا، قال: ابتسمي كلما تذكرتِ وجهي، وأنا سأفعل بدوري، حتى إذا ما التقينا مرة أخرى، نلتقي باسمين. السارة لسوء الحظ هجرت عداء الشعر في تلك الأيام، وتفرغت للنضال المعتوه من أجل فكرة تتأهل بها لموسوعة جينيس، لم تذهب إلى المكتبات إلا نادرًا، ولم تتذكر وجه سقراط وتبتسم إلا في هذه اللحظة التي سيحدث بعدها تغيير جذري. بحثت في حقائبها اليدوية الثلاث التي اعتادت حملها بالتبادل كلما خرجت، لا تملك حقائب بلون الفساتين التي تلبسها. في الواقع لا تملك فساتين كثيرة، وتحب أن ترتدي تنانير الجينز في أغلب الأوقات. كانت تبحث عن هاتف سقراط، وعثرت عليه في قاع إحدى الحقائب مختلطًا بعلكة ممضوغة كادت تمحو أرقامه. سحبت هاتفها القديم، وأدارت الرقم. استمعت إلى موسيقى هادرة ومزعجة، يستخدمها سقراط لإطراب المتصلين به كما يعتقد، ويدفع عليها عدة جنيهات شهريًّا لمزودي الخدمة، قبل أن يأتيها صوته من الطرف البعيد، يجيب بعناية شديدة:

- نعم .. جعفر سقراط يتحدث.

- ٢ -

لا بد أن شهرين كاملين قد مرا منذ أن ترك قسم السيد محارب سميتا باكار الغانيَّة في دار المزاين، في أمان كما أخبره المهدي، مساعد الشيخ، وشارك ممغوصًا في جنازة الكونتيسة التي قدَّرها المجتمع العاصمي بشدة، وازدحم الآلاف حول نعشها، ونشرت وصيتها بعد ذلك بعدة أيام، بوساطة محاميها الخاص، وكانت في مجملها، وصية أخاذة قلَّما كُتب مثلها في البلاد. كانت تبرعًا بكل ما تركته من مال سائل وأملاك، لمستقبل اللقطاء الذين يدخلون الحياة بلا أبوة معروفة، ويمضون فيها بلا مستقبل. بالطبع سرت شائعات كثيرة عن مصدر أموالها، وأشارت بعض الفتاوى المتشددة التي انطلقت عبر وسائل الإعلام المختلفة إلى حرمة استخدام أموال الشر في عمل الخير، لكن أحدًا لم يثبت شرًّا في سمعة امرأة عرفت كيف يطغى خيرها على الشر، وخرجت على ألسنة متلقي الهبة الكبيرة، من مشرفين على دور اللقطاء، وناشطين في حقل رعاية الأمومة والطفل، عبارات صارمة كلها تؤكد مشروعية تنفيذ الوصية، وبأسرع وقت ممكن، خصوصًا أنه لم يظهر أي وريث آخر يتصنع البكاء، ويطعن في الوصية.

لم يعد قسم السيد محارب إلى دار المزاين في ذينكما الشهرين قط، كان كعادته بلا قرش إضافي يزيد على حاجته، وحاجة جدته عاقبة، وأخته السارة التي باتت من مستخدمي مساحيق التجميل الخَطِرين، ورواد صالونات التزيين التي تستهلك الكثير من المال، وتمنح القليل لوجه واحدة مثل السارة، يحتاج إلى جهد كبير لتحويله إلى وجه جذاب، والمئة ألف دينار المطلوبة في دار المزاين ستظل معلقة، ولا يعرف إلى متى. وكان كلما مر بجانب دكة المطرودين في طريقه إلى عمله صباحًا، انزاح بوجهه بعيدًا، يخاف أن يرى الأفريقية جالسة عليها، تتكئ على حقيبتها القماشية، وتحاور يونانيًّا من الجنس الثالث، مشردًا، ومضفر الشعر، أو تصغي إلى مطالب غريبة من نمساوي معتوه لا يعرف أحد لماذا جاء أصلًا إلى هذه البلاد. لا يستطيع الجزم أن تعاطفه تجاه مأساتها قد خف، لكن بالمقابل بات يخاف من ذلك التعاطف الخطر، يتمنى لو انعتق منه في التو واللحظة، يتمنى لو لم يكن أصلًا. المزيون الأخ، المتدرب في حلقة الدراويش جاء مرتين خلال تلك المدة. في المرة الأولى كان متحفظًا قليلًا، قال إن سميتا قد قطعت شوطًا طويلًا في العلاج لدى الشيخ، وبات بمقدورها الآن أن تأكل للجني وجبتين فقط، بدلًا من الوجبات الثلاث التي كانت تخصصها له، قال إنه شاهدها كثيرًا تتمشى في دار المزاين في منتهى الأناقة محاطة بفتيات معجبات، ولم يسمع لها

شخيرًا غير إنساني، وشم في إحدى المرات عطرًا نفاذًا ينبعث من جسدها، ولم يكن لجسدها عطر حين جاءت. سأل في تردد عن المبلغ المطلوب، وماذا حدث في شأن تدبيره، وأجابه قسم السيد كاذبًا بأنه اقترب من تدبيره بالفعل، وسيأتي بنفسه إلى دار المزاين، يسلمه للمهدي في يده. أراد أن يسأل المزيون عن الحكاء السعودي غيث بن بريك، وأين وصل في علاجه؟ هل تلفت شياطينه المتبقية، أم ما تزال تقاوم؟ وقد ورَّم ليله، وأرهقه بشدة بعشرة في المئة فقط من تلك الشياطين، ماذا كان سيفعل لو لم تتلف أغلبيتها؟ أراد سؤاله وخاف من السؤال، انتظر أن يتحدث المزيون عن تلك الشخصية المهمة في دار المزاين من دون سؤال، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث. وقبل أن يغادر المزيون عائدًا إلى تدريبه، لَّمح إلى أن ثمة صراعًا خفيًّا يدور بين الشيخ ومساعده، يتناقله الدراويش همسًا، قال:

– ربما تحدث تغييرات كثيرة هناك، أنا ذاهب.

في المرة الثانية، كان المزيون أكثر أريحية، عرج على أخيه في بوابة الدخول عند فندق سواري، قبل أن يذهب إلى البيت ويستبدل زي الدراويش الأخضر. قال:

– يُقرئك الشيخ (هارون موسى) مساعد الشيخ المزيون السلام ويخبرك أن سميتا في صحة جيدة، ومعنويات عالية، ولم تبق سوى عدة أسابيع، وينتهي العلاج، وأن ذلك كله قد تم بلا مقابل.. لن

تكون مضطرًا لأن تدفع شيئًا.

جملة مفرحة بلا شك وتحتاج إلى زغرودة عالية، لو كان يستطيع أن يزغرد، لكن السؤال الملح في الوقت الحالي:

- وأين المهدي؟

أجاب المزيون، ولا تبدو على وجهه أي صيغة لانفعال خاص:

- معنا في حلقة الدراويش، لقد خفض الشيخ رتبته.

صحيح فعلًا، فقد كان من سوء حظ المهدي أن معسكرًا ضخمًا من الخيام الملونة، أقيم على مساحة واسعة في قرية (فدنكا) الملاصقة لدار المزاين، وخصص لإيواء أبناء الجنوب المقيمين في العاصمة، تمهيدًا لنقلهم إلى دولتهم الوليدة، بعد أن صوتوا للانفصال عن الشمال أخيرًا، جاؤوا إلى المعسكر من كل مكان، من الأحياء النظيفة والمتسخة، من البيوت المؤهلة للسكنى والبيوت العشوائية، ومن تحت الأنفاق والجسور، وأماكن تجمعاتهم في صالات الأسواق، والمجاري والحفر. كانوا يهللون بأصوات أفريقية خالصة، دفنت عربية الشمال التي يجيدونها، وأحيت رطانات مخبأة في الصدور منذ زمن، يرتدون الملابس المزركشة التي ستميزهم وتشي بأنهم أفارقة حقيقيون، وينتظرون الترحيل إلى موطن أحلامهم بلا صبر، جعل الرجال يخترعون ذكريات جديدة قبل أن تحدث وتمضي وتصبح ذكريات، الأطفال

في قمة تهيجهم ينظمون مباريات صاخبة للجري، يلامسون فيها دار المزاين ويعودون، النساء يرفضن تمامًا أن يكن منتظرات فقط، ويقمن بطبخ اللحم المقدد وعصائد الفيتريت على نيران توقد أمام الخيام، ويحلمن بحرية الفساتين، وحرية الشعر أن يمشط، أو يترك مجعدًا على الرؤوس. كان المهدي ينتظر زحامًا كهذا، لا بد أنه كان ينتظر، يعمل مساعدًا بصبر، ويزين وضعه كشيخ من الدرجة الثالثة بصبر، تألم كثيرًا حين ذهب جنود كتيبة المشاة إلى أرض أخرى، مجهضين حلمه كشيخ مفترض اسمه المصباح، سيزدهر ذات يوم في بلدة أخرى اسمها دار المصابيح. الأمر في هذه الحالة كان شديد الإغراء، ويحمل إذا نجح أجرين، أجر الآخرة باعتباره قد هدى جمعًا غفيرًا يدين معظمه باللاديانة، وأجر الدنيا، أن يُبجل بحق، ويتبعه هؤلاء إلى الدار الجديدة، بدلًا من الجنوب الذي لن يكون بأي حال من الأحوال أفضل من داره المفترضة. مشى المهدي على قدميه حافيًا كما يمشي دائمًا، عصاه تحت إبطه، ومسبحته المصنوعة من ثمار اللالوب حول عنقه حتى البلدة المجاورة، دخلها يترنح بترنح الصوفيين المعروف، يتغنى بأناشيدهم التي تمجد الثريد واللحم، وتذم الثوم الذي ينفخ البطن، ويطرد النوم، وحين اقترب من معسكر أبناء الجنوب، زاد من ترنحه، ورفع صوته أكثر، وفاجأهم بلا أي مقدمات بدعوتيه

معًا، دعوة الهدى، ودعوة أن يصيروا من أتباعه. أي شخص يتوقع في تلك اللحظة أن يهب الجنوبيون في وجهه، أن يتقيّؤوا على ملابسه، أن يأكلوه ويشربوا من دمه ويبدو برغم جلده الداكن وعري قدميه، أنموذجًا غير ملائم لطموحاتهم الجديدة، لكنهم لن يفعلوا. فرحة أنهم سيولدون في وطن وليد، أنستهم تطفله وكونه قد قطع نقاشًا مهمًّا كان يدور بين أفراد من عدة قبائل بينهم، حول الريادة والزعامة، وتقسيم الثروة القادمة، ومن سيركب الحافلة أولًا ومن سيهبط قبل صاحبه؟ تركوه هكذا يحكي حتى سكت من تلقاء نفسه، وعاد يترنح بلا طقس إلى دار المزاين. سوء الحظ كان بلا شك أكبر من ذلك، وأحد الأطفال العدائين شاهد كل شيء وفهم، وأسرع إلى دار المزاين قبله، وسبقه بأكثر من أربعين دقيقة، هكذا.

- ماذ فعل؟

يسأل قسم السيد أخاه، والمزيون لن يتحدث، فمهما كان ما حدث، فهو خاص بدار المزاين وحدها، والمهدي حتى وهو يترنح معهم في حلقة الدراويش مبتدئًا سلم المجد من جديد، كان ما يزال يحلم، ويحلم، وينسى أحيانًا أنه في حلم، فيمد يده للقبل الواقعية، أو يحني رأسه الأشيب بحثًا عن فم أبله، ينهال عليه باللثم. مهما كان لن يقول، وأسهل شيء عندما ينوي أحد ألا يبوح بسر، هو أن يردد:

- لا أدري.

ويحول الكلام إلى جهة غير مزعجة، وهذا بالضبط ما فعله المزيون الأخ، تحدث قليلًا عن المعتوه أحمد سليمان، الذي يسمي نفسه ما بعد المشير شكاك روعة الثعيلب. قال إنه أصبح قريبًا من العقلاء بشكل لا يصدق، فقد خفض طواعية رتبة ما بعد المشير، إلى رتبة ملازم، بعد أن انتبه إلى خطورة أن يتقلد رتبة كهذه، إما أن تجعله على لائحة المرشحين للتقاعد باستمرار، أو تغريه بقيادة انقلاب عسكري، وفي كلتا الحالتين لا يوجد مستقبل. قال المزيون إنه الآن أهدأ، ويوازن الأمور، وغالبًا ما يترك دار المزاين، بمجرد أن تختفي نجمتا الملازم من كتفيه، ويتحول بمحض اختياره إلى جندي عادي.

- ممتاز.. وماذا عن السعودي؟ الحكاء ابن بريك؟

هذا السؤال لم يطرحه قسم السيد حقيقة، فقط ارتسم على خياله في تلك اللحظة، وأجاب المزيون برغم أنه لم يسمع سؤالًا:

- ابن بريك في حالة جيدة جدًّا، بعد أن أخضعه الشيخ إلى علاج جديد يتكون من الطين النادر الذي يجلب من هضبة التبت، ويكلف كثيرًا.. الآن لا يقرأ من كتاب أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ كما كان يفعل من قبل، ولا يتابع قناة الجزيرة إلا نادرًا، واتجه بكل حواسه إلى المسلسلات التركية المدبلجة، وقنوات المصارعة الحرة، وردد مرارًا أنه خُلق ليكون نجمًا تركيًّا تعشقه البنات الجميلات، لكن الحظ لم يبتسم.

غير صحيح أبدًا، فغيث بن بريك الحكاء لم يكن في حالة جيدة إطلاقًا برغم الطين والبخور، وقراءة الطلاسم، وكونه قد تخلى عن كتاب الجاحظ، وقلل من التداخل المنفعل في قناة رائدة كقناة الجزيرة، لا يعني أنه قد شفي. كانت ثمة هزة جديدة من هزات الشيزوفرينيا تداعبه بعد أن شاهد سميتا الغانيَّة تتمشى في دار المزاين وعلى شعرها توكة خضراء، طلب من والده الذي يزوره بين حين وآخر، أن يمده بجهاز حاسوب متطور من ماركة (أبل ماكنتوش)، وابتدأ يكتب بابًا جديدًا في «كتاب التحرير»، سمَّاه: «جسد الأنثى حتى ولو»، وخصصها لوصف الجمال الأفريقي النادر، الذي سيتسلح لمواجهته بتعلم حركات الأتراك الخليعة في المسلسلات المدبلجة. أما قنوات المصارعة الحرة، فلم تكن ذات أهمية قصوى، ويشاهدها فقط لتعلم فنون القتال، تحسبًا لظهور أعداء ربما يفسدون عليه المتعة الجديدة.

كان من المألوف لسكان الحي الشعبي الذي يقيم فيه قسم السيد محارب وأسرته، خصوصًا المجاورين للبيت، أن يروا جعفر سعيد الملقب بسقراط ويعمل محررًا ثقافيًّا في إحدى الصحف الضيقة الانتشار، يأتي بين يوم ويوم، حاملًا كيسًا من البلاستيك، به بعض الخبز اليابس، أو سلة من السعف ممتلئة بأشياء متنافرة، بعضها يصلح لحمله إلى أنسباء محتملين، وبعضها لا يصلح، من المألوف أن تبدو السارة محارب مبتهجة، وترتدي ملابس براقة،

وإكسسوارات من الخرز والقصدير على عنقها وأذنيها، وتعد عصير البرتقال المخلوط بلا مشقة، وبحذر شديد يمنع تسلل روائح المطبخ إلى جسدها، لتظل في داخل صنف المرأة الأشد روعة. لم يكن قسم السيد قد أحب سقراط أو تعاطف معه قط، بالرغم من أنه وافق على خطبته لأخته حين جاء برفقة أمه واثنتين من أخواته العشر وعدد من النساء القادرات على التصدي، إذا ما زادت طلبات أهل العروس على الحد. الجدة عاقبة كذلك لم تحبه، ولكنها زغردت زغرودة أطول من تلك التي أطلقتها في شأن المزيون حين أصبح درويشًا، لأنها رأت فيه طوق النجاة الذي ألقته الأقدار لحفيدتها في الشهقة الأخيرة، وقبل الغرق النهائي. المزيون لم يشاهده إلا مرة واحدة، ولم يستطع أن يُكوِّن أي رأي، ومجاهد كان على النقيض، فقد أعجب به، راقته نكشة الشعر في رأسه، وقلم الكوبيا الذي يطل من بين ثنايا الشعر، ابتدأ يقلد مشيته، وعباراته الفلسفية، في شقاوته اليومية برفقة طالبات المدارس الهاربات من فصول الدراسة. وفي يوم عقد القران الذي حدث بعد شهر ونصف الشهر من الزيارات وتبادل الزيارات، واندماج الأسرتين كأسرة واحدة، أبلغت السارة شاهدي العرس اللذين جاءا إليها لنقل موافقتها إلى المأذون، أنها توافق على الزواج به بشرط أن يغير اسم زاويته الأسبوعية في الصحيفة، من «نظرات» إلى «السارة». كان قد خطر لها فجأة وهي غارقة في لجة

الفرح أن «نظرات» تلك ربما تكون حبيبة قديمة، كان يعرفها حبيبها ذات يوم، ويمجدها في تلك الزاوية. نقل الشاهدان ما سمعاه إلى المأذون وهما مستغربان، والمأذون نفسه مستغرب، والحاضرون مستغربون أكثر، فلا أحد على الإطلاق سمع أن ثمة امرأة اسمها نظرات موجودة في أي حقبة من الحقب المختلفة التي تعاقبت على البلاد. وافق سقراط على تغيير الاسم برحابة صدر، واكتمل توقيع القران، ولو دقق الحاضرون في وجهه في تلك اللحظة، لتبينوا شبح ابتسامة توهَّج فجأة وانطفأ. كانت بالفعل ثمة امرأة اسمها نظرات من بنات الغجر المترحلين في طول البلاد وعرضها، موجودة في ماضيه، ومنها استلهم كل تلك الخواطر العاطفية التي كتبها في زاويته، حتى يوم الزفاف.

في أحد الأيام، زار قسم السيد وهو يمارس عمله الاعتيادي في بوابة فندق سواري، السائق الخاص بفرقة أخوال فاطمة، التي تملكها المغنية سنابل، السائق نفسه الذي تحرش بصدر سميتا وساقيها، واضطر إلى إلقائها في وسط العاصمة، حين بدأت أظفارها اليابسة تطارد منابع شهوته، وتكاد تفتك بها. كانت المغنية تريده، وكانت المرة الأولى التي ترسل فيها في طلبه منذ حادث سميتا وشيطانها، ومنذ عادت من الدولة المجاورة، بعد أن أدت واجبها وأكثر من واجبها. كان حاكم المنطقة في انتظارها هناك على أحر من الجمر،

وقد فارقته قبل يوم مغنية أخرى من بلد آخر، وتركت ذلك «الأحر من الجمر» الذي يكرهه، ويتمنى لو وُصف الانتظار بوصف آخر غيره. غنت وفق الخطة الموضوعة من موظفيه، وصفق لها شعب المقاطعة كله، ووفق الخطة التي وضعها وحده، وصفق لها بيديه وقلبه وكليتيه، كانت ثمة صور جديدة تجمعها معه، قد وجدت طريقها إلى فيس بوك وتويتر، وهدايا قيمة من بينها قرد أليف اسمه «ساوساو»، يجيد الرقص والخلاعة، أراد الحاكم بإهدائه إليها أن يؤنس وحشتها، حين تكون ثمة وحشة تحتاج إلى إيناس. سألها عن أمنياتها في العام الجديد الذي سيهل بعد تسعة أشهر، أغمضت عينيها، وتمنت له طول العمر، وأن تكون المهرجانات في بلاده مرتين في العام حتى لا تغيب كثيرًا، وكانت لحظة إغماض العينين تلك هي ما ينتظره الحاكم، إذ أسرع في تزيين عنقها بعقد جديد من الألماس، كادت يُغمى عليها حين فتحت عينيها وشاهدته.

لم يكن وقتًا ملائمًا للذهاب إلى أي مكان، والزحام على البوابة في أشده، ورئيس حراس الأمن معكر المزاج، بفعل هبوط أسهم شركة «بلادنا» العقارية التي أسهم فيها بكل مدخراته، في بورصة الأوراق المالية، وقد باع أبناء الجنوب المقتدرون الذين أمكنهم أن يدخلوا البورصة، كل أسهمهم، من أجل المغادرة النهائية، إضافة إلى توجس قسم السيد الشخصي من لقاء المغنية، التي ستفتح حتمًا

ملف المرأة التي جاء بها إلى بيتها، وهو يعلم يقينًا أنها تحمل شيطانًا. قال للسائق: تعال في الليل، لا أستطيع أن أذهب الآن، وذهب السائق وهو يصارع سؤالًا مهمًّا، يود أن يلقيه ويتخلص من صراعه: أين المرأة الأفريقية؟

كانت التاسعة والنصف مساء حين هبط قسم السيد من حافلة أخوال فاطمة ذات الاثني عشر بابًا، أمام بيت المغنية سنابل، كان يحس بصداع مخيف، وتناول حبتين من المسكن من أحد النزلاء حتى يسكته. كانت المغنية جالسة في صالونها الأنيق، شعرها أعيد إلى طبيعته السوداء، بعد أن أدت صبغة العلم المؤقتة دورها على أكمل وجه. ترتدي ملابس زاهية من الحرير الطبيعي، وتنتعل صندلًا من القطيفة الحمراء يُظهر حناءها سوداء فاحمة على القدمين، وكان يجلس قريبًا منها على الأريكة نفسها رجل يقارب الستين من العمر، أصلع ومتأنق في بذلة رمادية ورابطة عنق خضراء، ويحمل دفترًا بني اللون، مفتوحًا بين يديه. عرفه قسم السيد على الفور، فقد كان القاضي المعروف (عبد الرسول كلي) الذي اشتهر بالأحكام القاسية، وأحيل إلى التقاعد قبل عدة أشهر، تحول بعدها إلى شاعر غنائي، ولا بد أنه الآن يقرأ أغنياته على سنابل، وحتمًا ستظهر تلك الأغنيات قريبًا، ويوجد عدة مغنين أكثر شهرة منها رحبوا بالشاعر الجديد، ولم يلتفتوا قط إلى كتابته التي لو قيست بمقاييس الإبداع

الحقيقية، لسُئل فورًا: من الطفل الذي يكتب لك سيادة القاضي؟

أشارت له المغنية بإصبعها أن يجلس حتى يُكمل القاضي قصيدته، وجلس يسمع مُرغمًا ما جعله يتساءل بينه وبين نفسه: من الطفل الغبي الذي كتب تلك القصيدة لسيادة القاضي؟:

أرى الشمس تشرق
وأحس بالنسيم العليل
أرى حبيبي
واقفًا عند الأصيل
أهمس في أذنه فيبتسم
وأهديه وردة فيضحك.
أقول له أنت حبيبي
ويقول أنت حبيبي
والشمس المشرقة تشهد حبنا
يا شمس زوري حبيبي كل يوم
يا نسيم كن عليلًا أمامه
يا طيور الجنة المغردة
كفاك جفاء
نحن دخلنا الحب البديع
وأنت لا تغردين.

نحن صنعنا التاريخ
وأنت تبتعدين.

كانت قصيدة القاضي قد أطربت سيادته شخصيًا في ما يبدو، لأنه أعاد قراءتها مرة أخرى وبصوت أعلى، وفي كلتا القراءتين ظلت سنابل فاغرة الفم في دهشة رذيلة. هي بحكم خبرتها في الغناء وما قدمته حتى الآن، لدرجة أن تعثر على منجم ذهبي تغرف منه بلا توقف، تعرف أن هذه الركاكة هي ما يريده المجتمع، لا ذنب لها في ما يريده الناس، ولا تستطيع أن تتحكم في الذوق العام، عدَّت هذه القصيدة التي اسمها «حبيبي»، فاتحة خير لتعاون كبير سيتم بينها وبين الشاعر المتأخر جدًّا في طرق الشعر، وفي صياغته، وأبدت إعجابها واستعدادها، مستخدمة صوتها المميز، الذي قضت زمنًا طويلًا وهي تكسره، وتمعن في تكسيره، حتى أصبح عصيًّا على التجبير. انشرح القاضي، ابتسم وبانت أسنانه السليمة الخالية من ضرر الدخان والقهوة، لأنه لم يدخن، ولم يشرب قهوة في حياته. انتزع القصيدة من الدفتر، سلمها لها، واقترح اسم ملحن معروف، طلب منها أن يلحنها إن أمكن، لكن المغنية أبت، قالت إنها ستلحنها بنفسها، لأن القصيدة دخلت قلبها من أوسع باب، وتحس بأنها ستفقد شيئًا عزيزًا عليها لو ذهبت إلى ملحن آخر. القاضي القاسي في أحكامه، والذي أصدر مباشرة قبل تنحيه حكمًا بالتفريق بين

رجل وزوجته، لان بشدة أمام الصوت المكسر، وردَّد وهو ينهض لينصرف من دون أن يلقي أي نظرة على قسم السيد، أن في ذهنه قصيدة أخرى استوحاها الآن للتو، وستكون عندها بعد غد على أكثر تقدير.

قسم السيد محارب والمغنية الآن وجهًا لوجه، ويحس بنبضه يتسارع، وبأنها ستقفز من مكانها في أقرب فرصة لتعضه، ملامح البهجة التي كانت حاضرة على وجهها أثناء وجود القاضي الشاعر، امَّحت فجأة، لتحل محلها ملامح السيدة المبجلة التي على وشك أن تطرد خادمة مهملة، بدأ يفكر في مبررات، ووسائل حماية ممكنة، ولم يعثر في ذهنه على شيء. لن تقبل المغنية أبدًا فكرة التعاطف المريض الذي جعلها تواجه جنيًّا في بيتها، وهي من قبيلة ترتعد من شيئين: رائحة الدم والجن.

فجأة سألته:

- هل عادت المرأة الغانيَّة إلى بلادها؟

- لا، إنها تتلقى العلاج عند أحد الشيوخ.

رد بصعوبة، ويتمنى أن يكون الاستفسار قد انتهى عند هذه النقطة، ولا مزيد من الأسئلة الأخرى. كان الاستفسار قد انتهى هنا بالفعل.

- أريدك أن تبحث لي عن عازف إيقاع جديد.

جاء لها بالمشرد سفيان كروكرو، الذي ينحدر من منطقة جبال النوبة، من قبل، بعد أن شاهده ينقر بإتقان على هيكل سيارة متوقفة، وكان الأمر مصادفة بحتة قد لا تتكرر مرة أخرى. هل تظن أن لديه مصنعًا لعازفي الإيقاع؟

- هل تخليت عن سفيان؟

- لا .. هو الذي تخلى عني.. سيسافر إلى دبي للعمل في مصنع لمراتب الإسفنج. السافل ناكر الجميل، أنا الذي صنعته، وكان مشردًا ونتن الرائحة حين أحضرته.. هل تذكر؟

قال: نعم، وواساها بما استطاع استحضاره من عبارات المواساة، وفي الوقت نفسه يستغرب أن يصبح عازف إيقاع شهير فجأة، عاملًا في مصنع إسفنج في بلد بعيد! لا بد أن هناك ما أجبره على اتخاذ هذا القرار.

وحتى لا ينطبق وصف السافل ناكر الجميل على سفيان كروكرو، كان من المفترض أن يعرف أولئك الذين تبهجهم أغنيات سنابل، ويقتطعون من رزقهم وأرزاق عيالهم، لحضور حفلاتها الصاخبة التي ترافقها الدعايات المكثفة، لقط ظل عازف الإيقاع القدير، والفقير في الوقت نفسه، يرافقها أكثر من سبع سنوات، يخترع لها بأصابعه، الوصلات المناسبة للرقص، والتي تحتاج إلى الرزانة، التي تحلق بخيال الجماهير، والتي تسمرهم في مقاعدهم، لم

يتلق حتى هذه اللحظة قرشًا واحدًا زيادة على مصاريف أكله وشربه ونومه في غرفة حقيرة، في حي عشوائي. جاءته مئات العروض المحلية من فرق أخرى كان يمكن أن تصيره إنسانًا، وأجهضتها المغنية بما تمتلك من سطوة وجبروت، الشيء الوحيد الذي لم تستطع إجهاضه، هو سفره شبه المؤكد إلى دبي، ليصبح عاملًا في مصنع إسفنج، ولو استطاعت لما ترددت البتة.

دخل إلى الصالون في تلك اللحظة غلام مبتهج الملامح يراه قسم السيد لأول مرة، ويستطيع أن يخمن من وجهه النظر، وتصرفه كصاحب بيت، أنه ابن أخت أو أخ للمغنية. كان يمسك بالقرد ساوساو الذي أتت به المغنية من عند حاكمها المتيم في رحلتها الأخيرة، بسلسل لماع، ترك القرد يمارس بعض الشقاوة عند قدمي المغنية، تمسَّح بثوبها، وقبل ركبتها، ووقف على قدميه الأماميتين، وهز وسطه، قبل أن يقوده مرة أخرى إلى الخارج. أحس قسم السيد بالخوف، وبالرعدة التي ترافق المفاجأة أحيانًا، فقد كانت المرة الأولى التي يشاهد فيها قردًا ينقاد مثل كلب البيت بلا تذمر، ولا وحشية، المرة الأولى في الواقع التي يرى فيها قردًا حقيقيًّا خارج أفلام قناة «ناشونال جيوغرافيك» التي يشاهدها أحيانًا في التلفزيون المعلق في بهو فندق سواري. تريد عازفَ إيقاع جديدًا، وبإمكانها أن تشتري سبعين عازف إيقاع بشتى الألوان، لو أرادت، يمكنها حتى بما

تمتلكه من مال أن تجند عالم الذرة الصيني المنشق (بو لوا)، لينقر على الطبل عندها، وأسهل شيء أن تلبي مطالب سفيان المشروعة، التي طرحها عليها مئات المرات، فيقلع في التو عن فكرة الهجرة، فما كان، البتة، عاملَ إسفنج في يوم من الأيام.

كان قسم السيد يفكر ويحس بأنه يقترب من مرحلة الاستياء الكامل من المغنية، وعدم التعاطف معها نهائيًّا بعد ذلك، وما كانت قد منحته طوال تلك السنوات التي قضاها في خدمتها أي شيء. كان بإمكانها أن ترد له شيئًا من الجميل، تتغاضى عن مسألة الجنّي غير المخيف حقيقة، فلا تطرد امرأة ضائعة بحاجة إلى مأوى، ولأول مرة في حياته، أحس بأنه أمسك بطرف خيط جديد، بخيط كامل.. لا تعاطف مع المغنية بعد اليوم، لا تعاطف على الإطلاق . ولما كان مثل هذا القرار الخشن، غير المعتاد عنده، يحتاج إلى قباحة ولسان صريح للغاية، فقد التوى بملامحه، وهيَّج لسانه:

- لا أعرف عازف إيقاع آخر ولن أعرف.

كان في شبه ثورة حين غادر المكان، تاركًا المغنية تستغرب، ويتمنى أن تظل هكذا مستغربة حتى الصباح والصباحات التي تليه، خطرت على ذهنه الكونتيسة فجأة، وأحس بالفراغ العريض لموتها المباغت. كانت الكونتيسة تؤازره، وتهبط بسرعة غير اعتيادية لتوازيه وهو الفقير إلا من مرض التعاطف.

الفصل السادس

تلك الأجندة

- ١ -

ثلاث معضلات كبيرة تشكَّلت فجأة، الأولى انطلقت من فندق سواري، وتخص الدولة كلها، حكومة وشعبًا، وموارد وما شابه ذلك؛ فقد جاءت إلى الفندق بغتة في أحد الصباحات، امرأة صينية في منتصف الثلاثينيات، صينية تقليدية في الوجه والعنق وضيق العينين، وقصر القامة التي توازي قامة طالبة من طالبات الصف السادس الابتدائي. كان اسمها (لو لي لوا)، معالجة متمرسة بالإبر الصينية، وزوجة للصيني الراحل، لي جيانج الذي كان جائعًا للجسد المحلي، واغتالته أياد مجهولة في إحدى المزارع المهجورة، وحُرق ونُثر رمادًا في النيل. لقد عرفت (لو لي لوا) بموت زوجها المخلص كما تقول، من زملاء له في مشاريع الوهم التي كان يطاردها في البلاد البعيدة، وأودت بحياته. لم تصدق أنه كان يسعى لخيانتها مع نساء لا يشبهن ميوله على الإطلاق، ولا يجدن ما تجيده، وقد وفرت له طوال وجوده في حياتها كل خصائص المرأة العاطفية المخلصة، التي تسهم حتى في وضع بويضاتها مستثارة بوساطة الهرمونات، لتحصل على إخصاب جيد. ولأنها معالجة بالإبر الصينية وذات خبرة واسعة في هذا المجال، لم تجعله يشكو البتة خللًا في أي غدة من غدده التي

تنتج. كان يصحبها مترجم من الصينيين الذين يتباهون بإجادتهم للغة العرب أكثر من أهلها، وظهر ذلك جليًّا في ترجمته لهيجان المرأة، حين افتتحها ببيت الشعر المعروف لشاعر العرب الصعلوك عمر بن أبي ربيعة:

من اللائي لم يحججن يبغين حسبة ... ولكن ليقتلن البريء المغفلا

ناسيًا أنه ليس في قاعة درس لطلاب اللغة العربية، وأن عليه أن يترجم بأمانة ما تريده الزوجة المكلومة فقط، بعد هذه الرحلة الطويلة، وكانت للأسف الشديد تريد رماد زوجها الذي استعجل زملاؤه الصينيون ذرَّه في النيل.

انطلقت المرأة من سواري إلى معظم دواوين الحكومة التي تعاطت مع الصيني حيًّا وميتًا، مثل إدارة الهجرة والجوازات، ووزارات الاستثمار والداخلية والخارجية، وبعض أكشاك السجائر التي تبيع المالبورو، والصيدليات التي تتوافر فيها الواقيات الذكرية، وغيرها وغيرها، ووصلت إلى المزرعة المهجورة التي عُثر فيها عليه بلا رأس، ولم تقتنع البتة بأن النيل لا يمكن أن يرد غبارًا ابتلعه، وقد بات مألوفًا بشدة أن يُشاهِدَ العشاقُ وهم يسيرون متماسكين على ضفة النيل، والرياضيون وهم يركضون، والأطفال وهم يمصون الآيس كريم، امرأة قصيرة القامة تجلس باكية، تتوسل إلى النيل أن يتقيَّأ، ويرد رمادًا غير ممكن رده.

المعضلتان الأخريان كانتا تخصان قسم السيد بلا شك، ومن صميم المعضلات التي يمكن أن تحدث في حياته ولو لم يكن في نوبة تعاطف. فقد وظفت الجدة عاقبة خادمة من أهل الجنوب، اسمها (ماري أنطوانيت لادو)، قبل ظهور نتيجة الاستفتاء على تقرير المصير بعدة ساعات فقط. كان جهلًا من الفتاة أنها بحثت عن عمل في ذلك الوقت الحرج، وكل الدلائل تشير إلى أن ثمة دولة جديدة ستتكون، وجهلًا أكبر حين طرقت باب الجدة عاقبة المتطرفة في أشياء أخف كثيرًا من مسألة خادمة. ما حدث أن الفتاة بوجهها الأملس المليح، وشعرها المكوي في صالون تجميل معقول، وأناقتها المفرطة، إضافة إلى اهتمامها الشخصي بمسألة الديكور، وتغيير مواضع الأثاث في الغرف، ومد النظافة بالمكنسة حتى الشارع العام لأول مرة في تاريخ البيت، قد أعجبت الجدة تمامًا. أقسمت أمام أحفادها وعدد من الجيران للمرة الأولى في حياتها، أنها لن تترك هذه الخادمة أبدًا، ستتبناها وتُدللها، ستحتفظ بها إلى ما لا نهاية. ما حدث أن نتيجة الاستفتاء على تقرير مصير الجنوب قد أعلنت، وهلل أهل الفتاة كما هلل غيرهم، وجاؤوا لاصطحابها إلى المستقبل، والجدة تأبى بشدة، تشدها من شعرها وملابسها لتبقيها في الماضي، وتعارك بالعصا الغليظة التي اقتنتها أخيرًا من أجل إخصاء اللصوص، كل من يقترب من البيت، وأصابت في لحظة الهياج تلك أحد أبناء

عمومة الفتاة بجرح قطعي عميق في رأسه استلزم نقله للمستشفى، وخياطة الجرح، وإبقاءَه تحت الملاحظة خوفًا من ارتجاج المخ. حساسية الموضوع جعلت ضابط الشرطة الذي تولى التحقيق في الواقعة، فظًّا إلى أقصى حد. كان يخاف من كلمة «أجندة»، التي انتشرت بشدة في تلك الأيام، لدرجة أن يستخدمها الأطفال أثناء لعب الكرة، وربات البيوت أثناء تقطيع البطاطس والبصل. أجندة أجنبية، أجندة عنصرية.. أجندة تخريبية.. أجندة موجهة بخيوط المؤامرة، هكذا .. لم يحترم سن الجدة عاقبة ولا تقلب مزاجها الذي كان شيئًا عاديًّا عند الجدات الطاعنات في السن، بعد نفاد هرمونات التوازن لديهن، وأغلق عليها باب الحراسة المؤقت، حتى يتنازل الجنوبيون طواعية عن الشكوى، أو يخرج جريحهم من المستشفى، ويوقع تنازله بنفسه. الجنوبيون رفضوا التنازل واستخدموا كل ما لديهم من وسائل لجعل الضابط يرتعد ويذهب بين الحين والآخر إلى الزنزانة، ويتأكد بنفسه أن الجدة في مكانها وسط المجرمات، وأن أحدًا لم يعطف عليها ويطلقها. كان قسم غير موجود بالمنزل ساعة حدثت تلك المشكلة، ولا كان يدري أصلًا أن خادمة جديدة قد توظفت، وعبثت بغرفته كما عبثت بالغرف الأخرى. فُوجئ بأخيه الأصغر مجاهد، يظهر أمامه فجأة عند بوابة فندق سواري، ويلومه بشدة لرفضه أن يضع هاتفًا محمولًا في جيبه، وقد غدا

الهاتف المحمول في هذا الزمان، جزءًا لا يتجزأ من هيبة الجيوب، لا تستقيم إلا به. أخبره بموضوع الجدة المتأزمة، التي تصرخ حاليًّا في زنزانة كئيبة، واستغرق الأمر عدة ساعات إضافية ليوافق رئيسه، ويتم استدعاء الحارس الذي يعمل بأجر يومي. وحين وصلا إلى قسم الشرطة يصحبان عددًا لا بأس به من الأقارب، وهم يحملون بوادر اعتذار، ويطمحون لتخليص الجدة، وجدوا أن الأمر قد تعقد بالفعل، وما كان يخاف منه الشرطي قد حدث، والآن عدد من زعماء القبائل المنفصلة واقفون في قلب الحدث، ويلوحون بالأجندة التي استخدمتها الجدة، حين شدت مواطنة مستقلة من شعرها ومرَّغتها في الوحل، وجرحت مواطنًا مستقلًا، مشتبهًا في كونه مصابًا بارتجاج في المخ. لن تخرج هذه الجدة العنصرية من هنا أبدًا.

الكلام واضح بشدة، والأجندة واضحة، وما على الجميع إلا الانتظار، والتشبث بالصبر، ومحاولة التسلل من حين لآخر إلى زنازين توقيف النساء القذرة الملحقة بقسم الشرطة، والبحث عن الجدة وسط أخريات، كُن بلا أهل معروفين، ومدربات على العيش في تلك الأماكن. وفي اليوم الذي خرج فيه المصاب من المستشفى، وجاء يوقع تنازلًا بطيب خاطر من أجل أن يترك ذكرى حسنة في مكان سيغادره إلى الأبد، وكان ذلك بعد خمسة أيام من الحادثة، تنفس الجميع الصعداء، اقتادوا الجدة إلى بيتها، وهي تصر

طوال الطريق أنها لن تترك ماري أنطوانيت الرشيقة تمشي من بيتها، وكانت ماري أنطوانيت في ذلك الوقت داخل معسكر الإيواء في قرية (فدنكا) الملاصقة لدار المزاين، وعلى وشك أن تركب حافلة تمضي بها إلى بعيد.

المعضلة الثانية كانت أسرية بحتة، وبعد خمسة عشر يومًا فقط من شهر العسل الذي كانت تقضيه السارة محارب بصحبة زوجها في بلدة كنانة، في وسط البلاد، حيث مصنع إنتاج السكر الشهير؛ وذلك لسببين: الأول فلسفة سقراط التي حولت بلدة صناعية صغيرة بلا إمكانات، ولا وسائل ترفيه معروفة أو غير معروفة، إلى بلدة مثالية لقضاء شهر عسل نظيف. قال: إن السكر ابن عم للعسل، وكثير من الناس يضعون ملاعق العسل على الشاي والقهوة، بدلًا من السكر، ويعرف صديقًا من أهل اليمن، درس معه في الجامعة، كان إلى عهد قريب يؤمن بأن السكر والعسل شيء واحد، فقط تختلف التسمية من شعب إلى شعب، ويقول قدماء العرب، إن ما كان سكرًا فهو عسل، والعكس صحيح. والسبب الثاني، أن أحد أبناء خالته، واسمه مأمون، كان يعيش في كنانة، ويعمل في مصنع السكر، ويملك بيتًا واسعًا، يغني عن تكبد مصروفات غير ضرورية في فنادق ومنتجعات غالية. السارة فهمت مسألة ابن العم وبيته الواسع وتوفير المال، لأنها مسألة سهلة لم تكن في حاجة إلى تفكير،

لكنها توقفت طويلًا في مسألة السكر والعسل، تحاول حلها بكل أدوات البحث البدائية التي كانت مسخرة من قبل لنبش الغناء الوطني، ولا تصل إلى حل: السكر ابن عم العسل نسبة إلى حلاوة الطعم عند الاثنين .. هذا ممكن.. اختلاف التسمية لدى الشعوب.. ممكن، لأنها غير مطلعة على عادات الشعوب؛ ولكن ما قالته العرب قديمًا بدا لها غير ممكن على الإطلاق. لم تسمع تلك المقولة قط، ولا تعتقد أن السكر كان أصلًا موجودًا عند قدماء العرب، ليدخل في قول مأثور. ناقشت عريسها كثيرًا في تلك النقطة، ذهبت معه إلى شهر العسل البائس في كنانة، وهي تناقشه، قضت خمسة عشر يومًا، وهي تناقشه، وكانت النتيجة أن لا شهر عسل حقيقيًّا قد حدث، فلا زوجة تجردت من خجل العذارى، واستسلمت لمستلزمات شهر العسل الساخنة، ولا زوج استطاع أن يعثر على رغبة قوية، يشد بها زوجته إلى الفراش مرغمة. تدخل ابن العم وزوجته لفض الاشتباك، ألغيا قول العرب المأثور بعبارات قاطعة، وأقنعا سقراط بإلغائه، ولا فائدة. هو يصر أنه قول مأثور، والسارة تصر على أنه حذلقة بلا معنى، وأصرت في عناد أن تدخل مطبخ مضيفتها، تتمرغ بكل الروائح، حتى تنخفض من المرأة الأشد روعة، إلى رائعة فقط. انتهى شهر اللاعسل بعد خمسة عشر يومًا فقط، وعاد سقراط يجر الزوجة العنيدة إلى بيت أهلها مطلَّقة غير قابلة في الوقت الحالي،

لربطها مرة أخرى إلى حبل الزوجية، ولا أي حبل آخر من حبال الوصال المتعددة، وربما تعود إلى الشعر، وتستهدف العاطفي منه هذه المرة، ولو فعلت لأصيبت بالجنون من كثرة ما به من فظائع، ستصادفها أغنيات مثل: بهدلة بهدلة، وولد الجيران الحيران، وأحب المطبعجي، وشوربة ماجي، وغيرها، وربما تعاود النبش في الخوارق والمهازل التي تفتح الطريق إلى موسوعة جينيس. لن يقول لها قسم السيد أبدًا إنه لم يتعاطف معها، ولن يقول إنه تعاطف، سيظل رهن تقلباتها ويناديها بسحلية، وإذا صادف أن عثرت على متسول في الطريق وجاءت به لخطبتها، فسيوافق بلا جدال. الجدة عاقبة يبدو أنها أيضًا ستيئس، وغالبًا ما تتركها هكذا مجرد فرد من أفراد أسرتها، يعيش في البيت كما يعيش أي شخص في الدنيا في بيته.

- ٢ -

عاد المستثمر المنهزم حسن طراطيش الـذي حمل برجه الاستثماري المفترض صورًا ملونة وغادر منذ أكثر من عام، إلى الظهور في البلاد مرة أخرى. شاهده قسم السيد محارب في الصباح الباكر، حين جاء لتسلم عمله، ولم يصدق. كانت البلاد كما هي لم تتغير، أسعار العملات ما زالت تتأرجح بين هابطة، وهابطة جدًّا، طلاب المدارس ما زالوا يرتدون الزي العسكري نفسه، بائعات الشاي الفقيرات مازلن يحتكرن بقعًا استثمارية ذات إغواء في وسط العاصمة، عساكر المرور لا يعشقون عسكرة المرور، شيءٌ تافه لا يُذكر فقط قد حدث، إذ انفصل جنوب البلاد عن شمالها.. كان يجلس في البهو واضعًا ساقًا على ساق، يرتدي بذلة زرقاء مخططة بلا رابطة عنق، وحذاء إنجليزيًّا يتوهج، ويضع في فمه سيجارًا ضخمًا غير مشتعل، بينما امرأة أجنبية في نحو الستين تجلس في مواجهته، غارقة في عدد كبير من الصور والأوراق. استأذن قسم السيد من زميله الذي انتهت مناوبته دقيقتين فقط، يحيي فيهما صديقًا قديمًا ويعود، واتجه إلى حيث يجلس المستثمر ورفيقته، وأخذ يبحث عن صيغة مناسبة يستغرب بها أمامه.

كان قسم السيد بالأمس في دار المزاين، وعاد منها في ساعة متأخرة من الليل. رحلة مهمة جدًّا، انتهت بنهايتها كما هو مفترض، واحدة من أسوأ نوبات التعاطف التي انتابته كما يتصور، النوبة الوحيدة التي تمنى لو أنها لم تصبه قط؛ إذ جاءه أحد أتباع الشيخ المزيون مكتملًا في زي الدراويش الأخضر، يخبره بضرورة حضوره الفوري إلى أرض المزاين. أحس بالقلق والتوتر، وذهب تفكيره إلى أخيه المزيون الذي يتدرب في بيئة غير آمنة كما شاهد بعينيه. شكاك روعة، غيث بن بريك، ولا بد أن عشرات غيرهما يحملون بذور الشيزوفرينيا موجودون أيضًا، ما دام ثمة شيخ بسمعة المزيون قد فتح بابه للعرب والعجم. مرض بتعاطف مزعج تجاه أخيه، وسأل الدرويش عن الخطب، وهل له علاقة بأخيه المزيون؟

- لا يا شيخ.. موضوع آخر.. إنه حفل زفاف.

رد الدرويش، وكانت للأسف هي الجملة الوحيدة التي يبدو أنه قد سُمح له بقولها إذا ما سُئل، لأنه التزم صمتًا تامًا، وتشاغل بمداعبة حبات مسبحته الطويلة التي تتدلى حتى قرب ساقيه حين سأله قسم السيد أن يوضح أكثر. يريد أن يعرف زفاف مَنْ إلى مَنْ ذلك الذي يُستدعى من أجله، ولا يعرف في دار المزاين سوى أخيه الذي لن يتزوج قريبًا بأي حال من الأحوال، وربما لن يتزوج أبدًا، وسميتا الغانيَّة التي أودعها مريضة، وبدأت تتأهل، لكنه لن يكون تأهلًا يزفها

إلى حياة زوجية. لَكَز الدرويش في كتفه، وهما يستقلان الباص الذي يتغلغل في قرى شتى، من بينها دار المزاين: قل ولا تخف.. زفاف مَنْ إلى مَنْ؟ تهيَّج الدرويش فجأة وهو يهم بالجلوس على مقعده، صرخ: حي قيوم، حي قيوم، لدرجة أن فتاة ترقد على كتف شاب هبت ملسوعة، وطفلًا نائمًا على صدر أمه انطلق في بكاء مرير.

في دار المزاين كان الجواب موجودًا، وأجوبة كثيرة لأسئلة لم تُسأل موجودة أيضًا؛ فبعد أن تكررت سياحة سميتا الغانيَّة في دروب البلدة، بتوكاتها الخضراء والصفراء والبنفسجية، وبقمصانها التي طالت قليلًا، بعد أن تم ترقيعها بوساطة نساء الشيخ ونساء الأتباع، وبعد أن أصبح غيث بن بريك الحكاء متمكنًا من الثقافة الغرامية بفضل مسلسلات الأتراك المدبلجة، وبعد أن أكمل باب «جسد الأنثى حتى ولو»، الذي كان يضيفه إلى كتاب الجاحظ بشكل هستيري، سقط في حب سميتا.

لن يقول أحد من سكان البلدة، خصوصًا سكان مجمع الشيخ المزيون، إن الشياطين التي يحملها في جسده، هي التي أسقطته في الحب، ويعرف الناس جميعًا في دار المزاين عن اقتناع كامل بأن ما يعرفونه حقيقة هو أن غيث بن بريك الدهوي شُفي، وبات في مقدوره أن يحب ويموت هيامًا، ويمشي عاريًا في الطرقات إن أراد، من دون أن يُصنف معتوهًا.

في البداية غازلها من نافذة غرفته التي تطل على ساحة مشيها اليومي.. قال يا نظيفة.. يا شبيهة اللاعقرب.. يا سالبة وموجبة وجامعة النقيضين، يا ظالمة لأنك تسرعين في المشي. كانت سميتا التي أجهدتها أيام العلاج الطويلة، حيث اضطربت لديها الدورة، واستنشقت كمًّا هائلًا من بخور القرض، والورق المحروق بعد ملئه بالطلاسم، تسعل. انتبهت إلى أنها تُغازل بصوت عربي صميم، صوت لا يشبه أصوات من قابلتهم منذ جاءت حتى الآن. رفعت وجهها، لترى ابن بريك في كامل زيه الخليجي، وقد حف شاربه، وهذَّب لحيته، يمنحها قبلة. تجاهلته ومضت في طريقها، لكن الشاب لم يتركها، لاحقها بعدد لا يحصى من القبل الهوائية، وصوب إلى ظهرها عطرًا غاليًا من قارورة مضلعة، تعطرت بسببه مساحة كبيرة من المكان.

في المرة الثانية فاجأها في النافذة ببذلة سوداء ضيقة وبلا أزرار، ورابطة عنق اخترعها بتمزيق ملاءة احتياطية كانت على سريره، طلب منها أن تقف صامتة وتسمع، وكان يقرأ باب «جسد الأنثى حتى ولو» بصوت بطيء وهامس، يكاد يجزم كل من يستمع إليه بأنه لا بد أن يكون الصوت نفسه الذي كان يغازل به عنترة بن شداد العبسي محبوبته عبلة. باب «جسد الأنثى حتى ولو»: نساء الأفارقة ما أعجبهن، يدخلن القلب ويخرجن، ليدخلن من جديد. هن

سريعات في المشي، ماهرات في التحايل، بديعات كنبات الحنظل، طويلات كأشجار النخيل، بريئات براءة الذئب من دم ابن يعقوب.. إلخ .. إلخ.

في المرة الثالثة حين ظهرت، وكانت قد غابت عن المشي الروتيني يومين بسبب قرصة نحلة قاسية تورمت على إثرها عينها، وبات هو مضطربًا ويقف نهاره وليله في النافذة، اعترضها صراحة، وكان سريعًا جدًّا في ضمها إلى صدره ولم يكن مصفدًا بأي أغلال كتلك التي صُفد بها شكاك روعة الثعيلب، ذلك أن الشيخ المزيون، منذ قدوم ابن بريك برفقة أهله، صرح بأنه لا يشكل خطرًا على أحد، لا ذكر ولا أنثى، ولا يجب تصفيده، وإن صادف وقتل أحدًا من السكان، فذلك قضاء وقدر. من ذلك المنطلق الصريح، كان باستطاعة ابن بريك، حين ينوي مفارقة سريره الضخم، وشاشته الكريستال قياس أربعين بوصة، وكتاب الجاحظ المرتب جيدًا في حقيبته، أن يسرح في دار المزاين بلا رقيب سوى عدد من الدراويش يتابعونه عن بعد، ولا يستطيعون التدخل في شؤون جنونه أبدًا، لكنه في الحقيقة لم يكن يتحرك كثيرًا، يذهب مرتين في اليوم إلى مقر الشيخ، يتلقى وجباته العلاجية ويعود إلى الغرفة التي يعيش فيها، كل ما يفعله حين يقطع المسافة بين الغرفة ومكان العلاج هو أن يمشي في خط مستقيم، ليس أكثر من ذلك، ولن يُضار أحد إن مشى

مستقيمًا أو ملتويًا أو زحف على يديه وركبتيه. حين ظهرت سميتا في المكان، ولفتت نظره يوم كانت تضع التوكة الخضراء على شعرها، وتسلح لها، وكتب بابًا إنشائيًّا بديعًا في وصفها ووصف بلادها كما يتخيل، بدأت حركته تتعقد، التوى في المشي بالفعل، ابتهج في النافذة، وأرسل قبلًا بلا حصر، واليوم بالذات في حالة غريبة، ويضم الأفريقية إلى صدره. لا تتذكر سميتا متى ضمها أحد إلى صدره آخر مرة، وهل كانت قد ضُمت من قبل أم لا؟ ولا تعرف هل كانت هذه ضمة عاشق أم ضمة سفاح؟ يقولون إن ضمة العاشق فيها عذوبة ورقة، وهذه أخشن من جدار خشن، وبرغم ذلك تذوقتها، لن تنكر حين تخرج من هنا بذكريات ما لترويها، أنها استساغت ضمة ابن بريك، وتمنت وهي تسمع ضلوعها تتأوه ألا يفلتها أبدًا. وكانت كلما أحست به قد ارتخى وأتاح لرئتيها أن تتنفسا، بلا لهاث، همست في أذنه: أشد من ذلك.. أكثر.

إنها لعبة الشيزوفرينيا التي أحيت أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وصيرته شاهدًا على مولد حريات الشعوب العربية من تونس إلى مصر، ومعلقًا فصيحًا على الأحداث، ولولا اختلال منطقه قليلًا، لاستضافته القنوات المشعة كلها، وازدادت به إشعاعًا. لعبة الشيزوفرينيا انتقلت إلى الحب، ومفهوم الحب عند ابن بريك الشيزوفريني ليس تنهدات ليلية وبكاء بلا طائل، ليس كتابة رسائل

متأججة قد تقرؤها الحبيبة، وقد تمزقها، لكنه شيء آخر، وهو ما طبقه حرفيًّا: الحبيبة تسمع ما كتب عنها رضيت أم أبت، الضلوع تتأوه، والنَّفَس يتقطع، واللسان الآخر يهمس: أشد من ذلك.. أكثر. حين أفلتها أخيرًا، وعاد إلى غرفته بلا وداع، ولا أمنيات بنزهة سعيدة، ونلتقي غدًا في الموعد نفسه، لم تستطع أن تمشي خطوة أخرى إلى الأمام، عادت إلى الغرفة التي حُشرت فيها منذ أن أتت، مع نساء أخريات، يحملن الشياطين والهستيريا، وابتدأت تنسج أحلام يقظة أخرى غير تلك التي كانت تنسجها في العادة. جاءتها اثنتان من حريم الشيخ، قدمتا لها اعتذارًا خجلًا عن سلوك مريض تم شفاؤه، لكنه لا يعرف حتى الآن أنه شفي، ووجدت نفسها تصرخ: ليس مريضًا، شفي. المرأتان فهمتا أنها ترفض الاعتذار، وكانت تقصد اللذة التي خرجت بها من تلك المغامرة الفذة.. لم تكن لذة من مريض شفي، بل من معتوه يناسب تطلعاتها، وقد انتصر على الشيطان اللئيم الذي يسكنها، وحرمها زمانًا من ضم الرجال. في حلم اليقظة الأخير، قبل أن تغفو، تمنت لو أصيبت بمرض المشي أثناء النوم، حتى تكون في غرفته، وبطريقة لا يتهمها فيها أحد بأنها ذهبت عن قصد.

من جانبه، لم يكن ابن بريك أقل عطاءً من حبيبته، وما كانت أحلام يقظته أقل انحدارًا من أحلامها، وهو أصلًا ليس لديه أحلام سوى تلك المستيقظة، فقد تعوَّدَ نومًا دقيقًا ومحسوبًا منذ

غزته كوابيس الانفصام لأول مرة، ويحس أثناء نومه بكل انفعالات المرض، فيفضل أن يواجهها مستيقظًا، لا نائمًا، وبتلك الساعات الطويلة التي يقضيها ساهرًا أمكنه أن يتابع قنوات الحوار، ويضيف أبوابًا جديدة لكتاب التحرير الذي ألفه أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. في تلك الليلة، كان يسمع ما يسميه النفسانيون «الصوت الثالث»، الصوت الذي يتحدث إليه، ويؤانسه، ويناديه إن فكر في الابتعاد، لا يصرخ يا ابن بريك.. ولكن يهمس: يا غيثي، يا حبيبي، يا صاحب الود. في الصباح التالي كانت لدى الشيخ المزيون في خلوته حيث يباشر علاج الحكاء، وسميتا، وشكاك روعة، وعشرات غيرهم مصابين بأنواع مختلفة من العلل، أجندة جديدة، فضحها ابن بريك مباشرة من دون حاجة إلى تحريات، قال: شفيت يا شيخي ومؤهل للزواج، وخطبت يوم أمس، وستعقد أنت القران غدًا عصرًا. أنت موافق.

استدار ليمضي غير عابئ بالطين النادر الذي يجلب من هضبة التبت، يتمدد في يد الشيخ، ليضعه على رأسه الذي حلقه بنفسه ومحا منه الشعر. واستغفر الشيخ كثيرًا، وهو يظنها شياطين أخرى ركبته، بعد أن أتلف جميع شياطينه تقريبًا.. أمره بالجلوس ولم يجلس، تركه يذهب ونوى إعادته في وقت آخر من أجل تجربة علاج جديد، وحين دخلت سميتا، وشاهد الشيخ كتابة من الفحم على راحة يدها

وقرأ اسم ابن بريك كاملًا، فهم وابتسم، لم يَعُدَّ الموضوع إخفاقًا كما قد يتبادر إلى الذهن، بل عدَّ خروج مريضين بداء الشياطين من عنده وهما زوجان محبان نجاحًا باهرًا. صاح يا موسى، وهرول مساعده الجديد من أمام الباب.. قال: سنزوج غدًا شخصين عزيزين على دار المزاين: غيث بن بريك الدهوي، وسميتا الأفريقية.. جهزوا كل شيء.

كان «كل شيء» ذلك الذي عناه الشيخ، إخبار أهل العريس أولًا، وتجهيز بساط كبير من سعف النخيل، ليفرش غدًا في الساحة المجاورة للمسجد، تجهيز عدة جوالات من التمر، وترامس ضخمة تحوي شراب التبلدي والعرديب، والإيعاز لنساء المكان أن يجهزن سميتا بما يناسب عروسًا تُزف إلى عريسها، وإن استطاع أحد أن يجهز ابن بريك بأن يستولي على هاتفه المحمول، وجهاز التحكم عن بعد الخاص بالتلفزيون، فليفعل.. لا ينبغي لعريس مصر على الزفاف مثله أن ينشغل بأشياء أخرى.

حين وصل قسم السيد بصحبة الدرويش الذي أرسل لإبلاغه، فوجئ. من الإنصاف أن نقول إنه فوجئ، خصوصًا حين عرف أن سميتا اختارته وليًّا لأمرها، ولولا ذلك لم يكن ليستدعيه أحد أصلًا. كان عليه أن يجلس محترمًا ساعة عقد القران، يتحدث باسم موكلته، ويبدي موافقتها التامة. كان يشاهد الشيخ المزيون لأول مرة، وكان

تمامًا مثلما تخيله، في نحو الثمانين، محني الظهر ويمشي بصعوبة، ويشكل في حالته تلك مطمعًا كبيرًا للمهدي وغير المهدي، من الذين يعيشون في ظله، ويحلمون بصناعة ظلالهم. والد العريس أيضًا كان موجودًا، ومستسلمًا، وأحبه قسم السيد بسخاء المتعاطفين، بمجرد أن وقعت عيناه عليه، فقد كان بهي الوجه برغم مساحات الألم الكبيرة.

انتهى عقد القران، وزع التمر والعصير، ومضت سميتا إلى غرفة ابن بريك، واعية هذه المرة، وليست تحت ضغط الأحلام المستيقظة. سيقضي العروسان يومًا واحدًا، ويذهبان إلى العاصمة، وبعدها لن يعرف أحد من المحتفلين في دار المزاين، ولا حتى الشيخ المزيون نفسه، شيئًا. لن يعرف أحد ما يخبئ القدر لمثل تلك الزيجات التي نصفها هستيريا ونصفها شيزوفرينيا، سيحاول كثيرون قطعًا قراءة المستقبل والتخمين، والذين عرفوا ابن بريك طوال الأشهر التي قضاها في دار المزاين انقسموا إلى نصفين: بعضهم ردد بثقة، إن الزواج مبارك في العادة، وما تبقى من الشفاء سيأتي بعده، وبعضهم أقسم إنه يرى جريمة قتل كأنها حدثت، لكن لا يستطيع أن يقرر مَنْ قتل مَنْ؟ المهم أن قسم السيد محارب عدَّ مهمة إغاثة امرأة ضائعة قد انتهت، وليس لديه أي مبرر للتعاطف معها مرة أخرى.. لملم نفسه وانحشر في عربة لنقل الخضار خرجت من دار المزاين، والليل في منتصفه.

- عمي حسن .. عمي طراطيش. أنا قسم السيد محارب، حارس البوابة، هل تذكرني؟

الرجل لم يذكره. هكذا بدا لقسم السيد من لمسة يده الباردة حين صافحه، وأنه لم ينزل ساقه عن ساقه الأخرى، أو يخرج السيجار من فمه فيكون ذلك مؤشرًا لبداية حديث.

الذي لا يعلمه قسم السيد، هو أن الرجل تذكره أكثر من تذكره لاسم العطر النفاذ الذي يتعطر به، وتضج رائحته في المكان، ولكنه أصر بعناد غير مبرر ألا يتذكره أبدًا.

– تحدثنا كثيرًا عن البرج الذي يحتوي فندقًا ومركزًا تجاريًّا، وكنت ستوظفني فيه.

– ...

– تغدينا معًا في مطعم «سري للغاية».. أكلنا طبقين من الفاصولياء المهروسة.

– ....

– ذهبت معك إلى المطار، والتقطت أدويتك من الأرض حين سقطت، كان فيها دواء لضغط الدم، تستخدمه جدتي أيضًا.

عند تلك الجملة التي نطقها قسم السيد بصوت مزعج، انتبهت المرأة الأجنبية. استلت رأسها من بين الصور والأوراق، وتحدثت مع المستثمر بلغة إنجليزية صارمة، أغلب الظن أنها اكتسبت تلك الصرامة من رغبة المرأة أن يضع الرجل حدًّا لذلك المتسول الملح، ويمنحه شيئًا، ولعلها استغربت من بجاحة مهنة التسول في بلد

تزوره لأول مرة، لدرجة أن يمارسها موظفو الفندق الذي تقيم فيه.. هذا الاستغراب نتج بعد أن تأملت قسم السيد وهو غارق في زيه الفضفاض الذي يحمل شعار فندق سواري.

رد الرجل على الأجنبية وسألته مرة أخرى كما يبدو، رد عليها، وحين تحدثت هذه المرة كانت لهجتها حادة، وغالبًا ما كانت تأنيبًا، أو شيئًا من هذا القبيل، لأن العم طراطيش أنزل ساقه اليمنى عن ساقه اليسرى، نهض واقفًا وعانق قسم السيد بحرارة ابتعدت تمامًا عن الصقيع الذي لازمه في البداية.. قال

- سامحني يا شاب، ذاكرتي لم تعد تلتقط إلا القليل من الأشياء.. هذه السيدة مثلًا، كانت جارة لي في روما منذ عشرين عامًا، وحين التقيتها في باريس، لم أتذكرها إلا بصعوبة شديدة. والآن أنا مضطر لمرافقتها إلى دولة الجنوب، إنها تعمل في مجال النفط، وعلى موعد مع الزعماء هناك.. صدقني إذا قلت لك إنني أحيانًا أنسى أن اسمها كارولين وأناديها زليخة.

كان يكذب بمبررات يعرفها هو وحده، فذاكرته التي يتهمها الآن بالعجز لدرجة أنها تسمي كارولين، زليخة، كانت أرقى كيان في جسده المعتل كله، ومستعدة أن تعمل عمرًا آخر لو انتزعت منه، وزُرعت في عقل شاب.. الذي لن يعرفه قسم السيد، ولن تعرفه السيدة (كارولين ميمون)، الوسيطة في مجال النفط، والتي تعبر البلاد الآن في طريقها إلى

الجنوب لتضع قدميها مع الذين يهرولون لوضع الأقدام بعد الانفصال، هو أن حسن طراطيش لم يكن مستثمرًا في يوم من الأيام، ولا خاض بحر المال والأعمال، إلا سمكة صغيرة جدًّا، بحيث غرق عشرات المرات، وانتشل نفسه بصعوبة. ذلك البرج الذي جاء يحمل صوره، وادعى أنه يخصه وشركاء زعم وجودَهم، كان مجرد رسم بلا قيمة، دار به في دواوين الحكومة كلها، آملًا أن يصطاد به شيئًا، وخرج صفر اليدين. لم تكن فكرة مجمعات التسوق في البلاد فكرة ناجعة، الناس يشترون احتياجاتهم من سوق الشمس، وسوق الناقة، وسوق الدرملي، وأم دفسو، وإذا اشتاق الموسرون منهم إلى تسوق نظيف وفخم، فهي خطفة رجل إلى دبي أو القاهرة. لا يوجد من يحب الأبراج، خسائرها أكثر من فوائدها، وتحتاج إلى كهرباء الدولة كلها، لإنارتها. هكذا أخبره كل عتاة الحكومة الذين استطاع الوقوف أمامهم، أو الجلوس في مكاتبهم، ولوحوا له بالطرد من البلاد، إن أخرج صورة برجه مرة أخرى، وعرضها على أحد. إذًا ليست مسألة بلاد محشوة بالتظاهرات وعدم الاستقرار، ليست مسألة تلاميذ مدارس يرتدون الزي العسكري. ما عيب الزي العسكري؟! بالعكس هو عنوان للرجولة، ومحفز للذي يلبسه بأن يصبح شهيدًا في المستقبل بسهولة شديدة.. والسيدة (كارولين ميمون الفنزويلية)، ذات الأصل العربي بالرغم من أنها لا تعرف عن العرب شيئًا، لم تكن جارة له في يوم من الأيام، التقاها مصادفة في الجزائر. كان يبحث عن شرح

تجاري هناك ينفذ منه، وكانت في رحلة نقاهة بعد خضوعها لعملية إزالة الرحم. لم تستغرق وسيطة النفط بين يدي طراطيش زمنًا طويلًا ليكتسب ثقتها، ويقفز إلى دور السكرتير الماسي، الذي سيرافقها في رحلاتها إلى الأماكن الوعرة، يخرجها من مطبات الجنوب، ويسهل لها مرورًا آمنًا إلى العقلية المتمردة التي يعرف مفاتيحها.

تقبل قسم السيد حرارة لقائه المتأخرة بابتهاج، لم يسأله عن البرج الذي وعده بتشغيله فيه، لأن من الواضح أن الرجل الآن مهتم بنشاط أكثر ربحًا.

في المساء كان ثلاثتهم، قسم السيد محارب وحسن طراطيش، والفنزويلية كارولين ميمون، يجلسون على طاولة رحبة في مطعم «سري للغاية»، يتناولون الفول المهروس بالفلافل، ويقضمون البصل بتلذذ، والفنزويلية تبدو عادلة في تقبلها للأمور، وكاد قسم السيد في قمة إعجابه بها ينصحها بأن تأكل بقدر ما تستطيع معدتها، لأن ما تأكله الآن ربما لا تعثر عليه غدًا، وكانت الطائرة التي ستقلها برفقة سكرتيرها المنهزم ستغادر إلى الدولة الجديدة غدًا صباحًا. لم ينس حين عاد إلى حجرته في آخر الليل أن يبكي تعاطفًا معها، فهو يعلم أن ملاريا المستنقعات الفتاكة من أغبى أنواع الملاريا، ولا تفرق بين الصيادين، وحاملي الحراب، وعراة الصدور، ووسطاء النفط الأثرياء، ونجوم السينما العالميين، الذين يسعون إلى عمل الخير في بلاد بعيدة وقاحلة.

الفصل السابع

النهاية البداية

كان كل شيء يمضي عاديًّا. الثورات المتأججة في بلاد العرب حصدت وتحصد ثمارها بجدارة، والآن ليبيا القذافي المعزولة داخل كتابه الأخضر، تسعى لتنعتق. العالم يراقب نقاط الغليان بعيون واسعة، وقلوب ترتعد. لا شيء في الصحف غير الزلزلة وهتاف الحناجر، وفندق سواري يمتلئ بمراقبين دوليين، وحكماء من أفريقيا، ونزلاء متشابهين، لا يعرف أحد وظائفهم بالتحديد. يقف قسم السيد محارب في بوابة الدخول، كما يقف منذ سنوات طويلة، يفتش الحقائب بلا مزاج أمني، يسمي القادمين أعمامي وخالاتي، وأبنائي الصغار، ويبكي لو مرت حافلة تنبعث من مذياعها أغنية هجر. يريد الوظيفة لأن الجدة عاقبة عالقة بذمته، أخوه مجاهد عالق، والسارة أفلتت من الذمة، وعادت إليها بلا ندم. يشاهد أحيانًا مصادفة طليقها جعفر سعيد الملقب بسقراط، يمشي متبخترًا، وقلم الكوبيا خلف أذنه. يشتمه في خياله ولا يتعاطف معه بأي قدر من التعاطف. يسمع أن المزيون الأخ يتقدم في دار المزاين، ويتمنى لو

كان مجده هناك، ولا يتوقع أبدًا ما سيشاهده اليوم بالذات على دكة المطرودين أمام الكنيسة المهجورة، وهو قادم إلى عمله في الصباح.

كانت سميتا الغانيَّة، هي نفسها، على وجهها دلائل ذهول، ويدها اليمنى مكسورة، ومجبسة، وداخل عقدة من الشاش تتدلى من رقبتها. كانت تستند إلى حقيبتها القماشية، والحقيبة ممزقة، وتبرز من ثقوبها ألبسة متسخة وممزقة أيضًا. بجوارها يجلس اليوناني المضفر الشعر، يحدق في الطريق بلا كلل. انتفض قسم السيد حتى كاد يسقط تحت عجلات عربة مسرعة، انتفض مجددًا، ليفر عن وجهها، ويتمنى ألا تكون قد رأته. كان يركض من زقاق إلى زقاق غير عابئ بأنه حارس أمن في فندق سواري، من المفترض أن تبدأ وظيفته في التاسعة صباحًا.

١٩ فبراير ٢٠١١